مارد من الشرق



لأحمد قاسم جوده

٥

كتب للجميع

كتب للجميع

مارد من الشرق

بقلم
احمد قاسم جوده



٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة ((المصرى))

مـــارد من الشـــرق



انه مارد الشرق الجديد ينطلق من « قمقم » الاستعمار البريطانى بعد ان ظل حبيسا فى جوفه مئات من السنين ..

لقد انطلق المارد من محبسه بعد أن طال به البحث عن مخرج ينساب منه الى عالم الحرية والنور ، واوشك حين طال به المقام فى عالم العبودية والظلام ، ان يحطم « القمقم » الذى احتواه وان يخرج هائجا هائما على وجهه لا يبقى ولا يذر .. لولا ان بعث اصحاب « القمقم » رسولا منهم ، هو اللورد لوى مونتباتن ، فادرك بنافذ بصيرته مدى الكارثة التى تهدد قومه اذا أصروا على استعباد الهند واستمرأوا المضى فى احتلالها ، واذلال اهلها ، ومطاردة زعمائها والزج بهم خلف جدران السجون ..

وهكذا قدر للهند المستعبدة أن تخرج الى عالم الحرية والاستقلال ، وقدر للمارد الحبيس أن ينطلق الى العالم



الذى طال حنينه اليه ، وطال عذابه فى انتظاره ، وتعددت تضحياته الغالية فى سبيله ...

ولم تكد تمضى على انطلاق المارد أشهر معدودات حتى أثبت للملأ ان الحبس الطويل فى سجن الاستعمار لم يفل من عزيمته ، ولم ينل من كرامته وقوته

لقد توسلت بريطانيا الى قادة الهند بكل نوع من أنواع التوسل ان يبادلوها صداقة بصداقة .. وان ينسوا فواجع الماضى وأخطاءه وتضحياته ، وان يتركوا بناء « الكومنولث » — أو « رابطة الامم البريطانية » قائما على أساسه المعروف وهو الاعتراف بسيادة التاج البريطانى ممثلا فى منصب الحاكم العام ..

ولكن ذاكرة المارد لم تستطع ان تنسى كل شىء ، ومعدته لم تعد تحتمل ان تهضم كل شىء ... ولهذا صمم على تحطيم رابطة السيادة الرمزية ولو ذهب « الكومنولث » الى عالم الفناء !

ووقف الزعيم الشرقى العظيم نهرو يصارح الانجليز والعالم أجمع فى مواجهة الليدى مونتباتن من فوق منبر الجمعية التأسيسية فى دلهى ، بأن الهند ستصبح جمهورية مستقلة ، لاتعترف برابطة العبودية التى تجمع بين

دول « الكومنولث » ، وهى الاعتراف بالتاج البريطانى رمزا للوحدة بين تلك الدول ...

وانحنى السجان القديم العتيد امام ارادة المارد الجبار الذى انبعث من ظلام الشرق الاقصى ...

***

وبينما كان المارد الطليق ينفض عن ثيابه غبار الذل والعبودية على هذا النحو ، لم يفته ان يبادر فى الوقت نفسه الى اصلاح شأنه ، وترميم بنيانه ، واعداد العدة لمستقبل زاهر لايهدده شبح العبودية أو الحرمان ..

والذين أسعدهم الحظ بمتابعة النهضة الجبارة التى تنشر ظلها الوارف على انحاء الهند اليوم من أقصاها الى أقصاها ، ووقفوا على مدى قوة الدفع والاندفاع الهائلة التى تسير بها الهند الآن فى ميادين الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى والعمرانى والانسانى على هدى تعاليم غاندى وروحانيته الخالدة ، وتحت قيادة نهرو وعزيمته التى لا تعرف الملل والكسل - الذين أسعدهم الحظ مثلى بمتابعة هذا كله ، يستطيعون ان يؤمنوا كما آمنت بأن الهند جديرة بأن تكون موضع فخارنا جميعا نحن أبناء الشرق الذى طال كفاحه وحنينه الى الحرية والاستقلال

وانى لارجو ان يجد القراء فى هذه الصفحات عن رحلتى الى الهند مرتين فى عشر سنوات ، مايؤيد عقيدتى الراسخة فى مستقبل هذا البلد الشرقى الكبير الذى طالما ربطت بيننا وبينه رابطة الكفاح المشترك ، ضد الاستعمار المشترك ...

احمد قاسم جودة



قبل الاستقلال

أول جولة في ربوع الهند

بعثة وطنية

فى أوائل سنة ١٩٣٩ رأى الوفد المصرى أن يوفد الى الهند أول بعثة سياسية مصرية تشترك فى مؤتمر وطنى أجنبى ، فألف لهذا الغرض هيئة من أربعة أشخاص هم : المغفور له الاستاذ محمود بسيونى بك . وقد أسندت اليه رياسة الهيئة ، والاستاذ احمد حمزة بك والاستاذ محمود أبو الفتح بك وكاتب هذه السطور بوصفه عضوا وسكرتيرا للبعثة وكانت مهمتنا تمثيل الوفد المصرى فى الدورة الثانية والخمسين التى عقدها حزب المؤتمر الوطنى الهندى فى تريبورى فى شهر مارس سنة ١٩٣٩

هذا هو الاستعمار !

ألقت الباخرة مرساها فى ميناء بمباى فى اليوم التاسع من شهر مارس – أى بعد تسعة أيام من مغادرة بور سعيد . ولم نكد نهبط من الباخرة حتى وجدنا فى استقبالنا جمهورا كبيرا من شباب المؤتمر وفتياته تتقدمه مسز مونشى ، زوجة وزير الداخلية فى بمباى ، وبعض كبار رجال المؤتمر وكان معظم الزعماء قد غادروا المدينة الى تريبورى لحضور الدورة السنوية التى ذهبنا لشهودها ، والتى حدد لبدئها اليوم العاشر من شهر مارس

وكأنما قدر لنا أن نستقبل مع هواء بمباى الحار فى لحظة وصولنا ريح الخلاف الطائفى الذى أفاد من ورائه الانجليز كل شىء ، وتأخر من جرائه الهنود فى تحقيق أعز ماتصبو اليه الامم وهو الحرية والاستقلال . . .



برج الوحدة حيث تلقى جثث البارسيين لتأكلها النسور
وغيرها من الجوارح

فقد خف لاستقبالنا فى المناء عدد من كرام المسلمين الذين لاينتسبون لحزب المؤتمر ، وقدعز عليهم فيما يظهر أن يحتكر رجال المؤتمر واجب تكريمنا فى سرادق أقاموه خارج الميناء ، فلم يشأ هذا الفريق من المسلمين أن يشاركهم فيه ، ولم يخف امتعاضه لهذا المظهر الذى لم تكن لنا حيلة فيه ، اذ نحن ضيوف المؤتمر الوطنى قبل كل شىء ، وان كان من واجبنا بالطبع الا نؤذى شعور أحد من الهنود أيا كانت ميولهم ومللهم . فكيف بذلك الفريق من المسلمين الكرام الذين جشموا أنفسهم مؤونة استقبالنا رغم علمهم بقدومنا ضيوفا على الطرف الآخر . .

وكان موقفا مفاجئا بالغ الدقة متناهيا فى الحرج . ولكنه لحسن الحظ لم يلبث طويلا ، وانتهى بتبادل عبارات الشكر والمجاملة الشخصية مع الفريق المناوىء للمؤتمر . . . والوعد بقبول أية دعوة توجه الينا للاجتماع بهم اثر عودتنا من جلسات المؤتمر فى تريبورى . وهو ماتحقق بالفعل طوال زيارتنا اذ حرص رجال المؤتمر انفسهم على تيسير اجتماعنا بخصومهم سواء فى حفلاتهم او فى حفلات دعينا اليها على انفراد

وذهبنا الى سرادق رجال المؤتمر فى الميناء ، وقد حمل كل منا فى عنقه عقودا بعضها فوق بعض من الورد والياسمين ، وهى العقود التقليدية التى اعتاد الهنود على اختلاف أديانهم أن يطوقوا بها أعناق ضيوفهم رمزا لصادق الترحيب والتكريم عند الاستقبال والتوديع .

وقد استمعنا فى السرادق الى خطاب حماسى من سكرتير حزب المؤتمر فى بمباى ، كما تليت علينا برقية تلقاها مستر مونشى (وزير الداخلية) من (بابو) أى الوالد ــ وهو التوقيع الذى كان يذيل به المهاتما غاندى برقياته ورسائله الى (أبنائه) زعماء المؤتمر وخاصة الاقربين . وفى هذه البرقية طلب الزعيم العظيم الى مستر مونشى أن ينوب عنه فى الترحيب بنا ، وابلاغنا تمنياته فى أن تكون هذه الزيارة فاتحة لتعاون وثيق فى المستقبل ، لتعزيز مابيننا من

روابط لاتنفصم . وقدانابتنى البعثة فى الرد ، فألقيت كلمة موجزة بالانجليزية شكرت فيهاللمستقبلين عاطفتهم ، متمنيا للهند ماتستحق من حريةواستقلال ، منوها بجهاد الزعيم الفذ غاندى ، شاكرا له ترحيبه القلبى فى برقيته الرقيقة .

ومضت بنا السيارات الى حى (ملابار هل) الارستقراطى فى المدينة ، حيث كان يقطن زعيم ممثلى المؤتمر فى المجلس التشريعى المركزى بنيودلهى مستر بولاباى ديزاى . وكان من اعظم الشخصيات السياسية وأكفأ رجالات الهند وقد بدأ حياته موظفا صغيرا فى الحكومة . ثم حصل على اجازة الحقوق واعتزل حياة الوظائف بعد أن بلغ منصب المحامى العام فى بمباى ، ليشتغل بالمحاماة والسياسة ، فأعانته مواهبه الخطابية الى جانب ما أوتى من روح المثابرة والجد والطموح ، على تحصيل ثروة ضخمة ، فضلا عما كسب من مكانة سياسية رفيعة تبوأها عن جدارة ، وقد توجها حزب المؤتمر الوطنى باختياره زعيما للمعارضة - أى لممثلى حزب المؤتمر - فى المجلس المركزى بنيودلهى . وقد حضرنا جلسة من الجلسات العاصفة بهذا المجلس ، كان لبولاباى ديزاى وزملائه فيها موقف رائع ازاء وزير المالية الانجليزى اذ ذاك مستر جريج ، وكان هذا الوزير قد قاطع نائب زعيم المعارضة مقاطعة غير كريمة ، فسلقه مستر ديساى بلسانه ، ودعا المجلس الى رفض عدة مشروعات بقوانين احتجاجا على سوء سلوك الوزير . حتى اضطر الوزير الى الوقوف فى الجلسة معتذرا عما بدر منه !

وقد كان أول ما استلفت نظرى فى بمباى ضخامتها وفخامة مبانيها المشيدة على الطراز الانجليزى ، ونظامها الانجليزى فى المرور (وهو شمالى) كانجلترا وهناك أحياء فى قلب بمباى يكاد يخيل المرء فيها - لولا اختلاف الطقس - انه فى قلب مدينة لندن ومن طريف مايذكر بهذه المناسبة أن أراضى البناء هناك تباع بما يعادل أسعارها فى لندن نفسها ! ولاغرو فقد وضع احصاء مقارن قبيل الحرب ثبت منه أن أغلى مستوى للمعيشة فى العالم هو

مستواهافى مدينة«ريود جنيرو»عاصمة البرازيل ، وتليها مباشرة بمباى !

وقد استلفت نظرنا فى بمباى لاول وهلة ، كما استلفت نظرنا فى سائر انحاءالهند التى زرناهامن بمباى الى بشاور ، مايستلفت قبل سواه ولا شك نظر كل زائر للهند ، وهو القداسة التى تتمتع بهاالبقرةعندالهندوسيين الى الحد الذى يمكنها من اعتراض حركة المرور أمام السيارات أوعربات الترام أو دخول أى مكان تشاء دون أن يزعجها أحد أوتحدثه نفسه باملاء ارادته عليها وتوجيهها حيث لا تريد الا باللين والمعاملة الحسنة ! ..

وكذلك لفت نظرنا شىء اخريوم نزولنا فى بمباى هو كثرة الحدأ والغربان التى تحوم فىجو المدينة . وقد أبدى المرحوم بسيونى بك هذه الملاحظة بينماكنا نتناول الشاى فى ضيافة وزير الداخلية ، مستر مونشى ،بحضور رئيس الوزراء الدكتور خير (وهو هندوكى لا مسلم كما قد يتبادر الى الذهن عند ذكر اسمه) وبقيةوزراء بمباى ،وهى احدى الولايات التى ظفر فيها حزب المؤتمر بأغلبية تؤهلهلتولى مقاليد الحكم وقد قال بسيونى بك فى بساطته الماكرةاللطيفة :

ـ ان لديكم من الغربان والحدأمثل مالدينا فى مصر ..

فأجابه الدكتورخير على الفورضاحكا :

ـ هذا يدلكم على متانة الروابط التى تجمع بين البلدين !!

على أنه تبين أن فى الامر سرالايمت الى الضحك أو التسلية بسبب . ذلك أن بمباى تنفرد دون سائر بلاد الهند ، والعالم اجمع، بوجوداكبر (مدفن)لطائفةتسمى طائفة البارسيين ، ونسميه بالمدفن ، أوالمقبرة ، من باب التجوز الشديد ، لان هذه الطائفة لاتدفن موتاها كما يفعل المسلمون ، ولا تحرقهم كمايفعل الهندوكيون ، بل تلقى بهم فى مكان يسمونه (برج الوحدة) ، وتتركهم للطيور الجارحة تمزق أجسادهم ، وتلتهمها اربااربا .. وبذلك لا تدنس عناصر الطبيعةالتى يقدسونها ! وهناك عند

(برج الوحدة) فى قلب بمباى شهدت أكبر مجموعة من النسور والحدأ والغربان ، بعضها يحوم فى الجو باحثا عن جثة تنهش ، ومعظمها واقف حول السور الطويل ينظر وينتظر !

والبارسيون ، وهم يعبدون النار ، يعتبرون أغنى وارقى الطبقات فى الهند ، وعددهم لايزيد على ١٤٠ الفا يعيش معظمهم فى بمباى ، وتتركز فى أيديهم ،رغم قلتهم ، أعظم صناعات الهند ، وهم يملكون أكبر الفنادق ويكادون يحتكرون الربا وشئون المال حيثما كانوا ، ولا يشغلون أنفسهم بالحركة الوطنية الا بقدر يسير . ومن اشهر أغنيائهم واغنياء الهند كلها مستر تاتا صاحب مصانع النسيج والصلب والطيران والصابون وغيرها فى الهند .



المؤتمر الوطنى

غادرنا بمباى فى مساء يوم وصولنا بعد ان تناولنا العشاء فى دار مستر ديزاى ، وقد شاهدنافى محطة بمباى – وهى على نظام محطات لندن ، تقع فى قلب المدينة – كما شاهدنا فى غيرها من المحطات لافتات كبيرة حرص الانجليز على ابرازها باضخم الحروف . وقد كتب على احداها « ماء للمسلمين » وعلى اخرى بقربها « ماء للهندوكيين » !

وهكذا كان الانجليز حريصين على اشعال جذوة الخلاف بين الهندوس والمسلمين بابراز هذه الاعلانات التى كانوا يتظاهرون بانهم لا يقصدون من ورائها شيئا سوى تفادى الصدام الذى يفرضون وقوعه دائما بين الطرفين .

استقلت البعثة قطار بمباى فى طريقها الى جبلبور (اى مدينة الجبل او الصخور) ، حيث قرر المؤتمر الوطنى ان يعقد دورته لذلك العام فى بلده تريبورى ، جريا على التقليد الذى جرى عليه منذ سنوات عدة ، اذ رأى أن يتغير مكان انعقاد دورة المؤتمر السنوية عاما بعد عام ، وان يختار لانعقاده قرى صغيرة فى شتى انحاء الهند حتى تتاح لاهل تلك القرى وماحولها فرصة الانتعاش الذى يصحب دورات المؤتمر اينما كانت، اذ تقام العشش كما تؤجر الاماكن الخالية ، وتنظم المرافق الصحية وتعد المطاعم ، ويقام معرض للصناعات والمنتجات الهندية ، ونحو ذلك من مظاهر النشاط التى يقتضيها اجتماع العدد الهائل الذى يشهد دوره المؤتمر فى كل عام ، وهو يتراوح بين مائة الف وربع مليون شخص يفدون

لمشاهدة تلك الدورات من شتى انحاء البلاد ، وقد جرت العادة بسبب ضخامة هذا العدد على أن تعقد الجلسات فى الخلاء ، حيث تفرش اقمشة الخيام على الارض فيستوى عليها الحاضرون جالسين يشاهدون عن بعد زعماء المؤتمر واعضاء لجنته العاملة جالسين على الخيام مثلهم ، فوق منصة فسيحه اعدت للخطباء ، وجهزت بآلات (الميكروفون) .

نشأة المؤتمر وأغراضه

السياسة الهندية ، كالسياسة فى سائر بلاد العالم ، مليئة بالمفارقات والمتناقضات التى لا يكاد يفهمها أو يهضمها الا الذين يحيطون بدقائقها ودخائلها .

ومن هذه المتناقضات على سبيل المثال ان المرحوم الدكتور محمد على جنه (لاجناح كما يخطىء كثيرون) زعيم حزب الرابطة الاسلامية سابقا ينحدر من جد هندوسى ! ومع انه كان اول رئيس لدولة باكستان . الا أنه لم يكن صاحب هذه الفكرة — أى انشاء الدولة الاسلامية فى الهند ، بل لم يكن يعتنقها حين كان يدعو اليها الآخرون ، ويعتبر هو نفسه أكبر حجة ضد الباكستان ، كما سنبين فيما بعد . . .

ومن هذه المتناقضات أن المهاتما غاندى لم يكن رئيسا لحزب المؤتمر الهندى ، ولا حتى عضوا مشتركا فيه اذ استقال منه عام ١٩٣٤ ، ولكنه مع ذلك كان روح المؤتمر وصاحب النفوذ الاكبر فيه دون منازع !

ومنها أخيرا ، وليس آخرا ، أن المؤتمر الهندى ماكان ليوجد أو يولد فى سنة ١٨٨٥ لولا أن موظفا انجليزيا متقاعدا يدعى الان هيوم دعا الى تكوينه ليكون أداة استشارية تمد الحكومة بآرائها ونصائحها فى المسائل الادارية والاجتماعية . . .

بل ان الانجليز أنفسهم هم أصحاب الفضل فى توجيه المؤتمر منذ انشائه وجهة سياسية . اذ رأى اللورد دفرين حاكم الهند اذ ذاك أن من مصلحة الاستعمار البريطانى أن توجد الى جانب أداة

الحكم الاستعمارية فى الهنـد ،معارضة ودية موالية للاستعمار وان كان اللـــورد دفرين قد ندم بعدئذ على نصيحته ووصف المؤتمر بأنه « أقلية حقيرة » !

وقـد ظهر حزب المؤتمر فى عالم الوجود فى أواخر شهر ديسمبر سنة ١٨٨٥ ، حين عقـد دورته الاولى فى بمباى بحضور ٧٢ وفدا وظلت دوراته تتوالى ، واعضاؤه يتضاعفون ، مع محافظته عـلى الولاء للبريطانيين حتى كانت الحرب العالمية الاولى ، حين قبض غاندى على زمام المؤتمر ، وجعل منه أداة يحسب حسابها ، فلم تكد الحرب الاولى تضع أوزارها حتى أثارها غاندى حملة شعواء على السياسة البريطانية والاستعمار البريطانى فى الهند ، فكانت حركة العصيان المدنى ، والمقـاومة السلبية فى سبيل الاسـتقلال الذاتى الذى ظل شـعار المؤتمر الى أن كانت سنة ١٩٢٩ فأصبح شـعاره الاستقلال التـام ، لا مجرد الاسـتقلال الداخـلى على نظام (الدومنيون)

والمؤتمر الوطنى هو بلا جدال أعظم احـزاب الهنـد نفـوذا ، واضخمها عددا ، وادقها نظاما ،وانصاره جميعا مقيـــدون فى سجـلات رسمية للحـزب ،ويشترط فى العضـو أن يدفـع اشتراكا سنويا قدره اربع انات ،اى نحو قرشين بالعملة المصرية ، يصرف من مجموعها على دورات المؤتمر السنوية ، ونفقات فروعه فى شتى انحاء الهند ، وقد زرت فرع المؤتمـــر فى لكناو ، فرأيت كيف يكون التنظيم الحزبى الدقيق الذى تعـــززه الاحصائيـــات والرسوم البيانية التى يستـــدل منها على مدى الزيادة أو النقص فى اقبـال الشعب على تاييـــد الحزب عاما بعد عام

وليس للطائفية مكان فى مبادىء حزب المؤتمر ، وهـو يؤكد هذا الاتجاه بتحريم عضويته على اى شخص يكون منتميا الى هيئـه دينية، هندوكية كانت أو اسلامية . . فالمؤتمر حزب وطنى للوطن كله ، لا هندوكى للهندوكيين ولا مسلم للمسـلمين ، بل هنـدى للهند،لا فرق بين طائفة،وطائفة ولا بين دين وديـن ، ولا بين جنس وجنس ، وليس اقطع ، ولا اروع فى تصوير هـذا المعنى مما قاله

غاندى فى مؤتمر المائدة المستديرة الذى عقد فى لندن بين سنة ١٩٣٠ و سنة ١٩٣٣ ، اذ قال مخاطبا رئيس احدى اللجان .

« اننى لست الا وكيلا بسيطا متواضعا ينوب عن المؤتمر الوطنى الهندى ، وقد يكون من الخير أن تذكروا معنى المؤتمر وماهيته ، فانكم عندئذ ستشملوننى بعطفكم .. لاننى ادرك ان العبء الملقى على كتفى جد عظيم .

« المؤتمر - اذا لم اكن مخطئا - هو اقدم هيئه سياسية فى الهند ، وقد سلخ من العمر نحو خمسين سنة ، عقد خلالها دوراته السنوية دون اى انقطاع وهو كما يدل عليه اسمه (وطنى)، لا يمثل طائفة بعينها ، ولا طبقة بعينها ، ولا مصلحه بعينها ، بل يضطلع بتمثيل جميع المصالح وجميع الطبقات الهنديه ، وانه لمن اعظم البواعث على سرورى ان أقرر أن فكرته طرأت لاول مرة على ذهن رجل انجليزى ، هو الآن أوكتافيان هيوم الذى نسميه (ابا المؤتمر) ، وقد اعتنق تلك الفكرة عظيمان من طائفة البارسيين هما فيروزشاه مهتا ودادابای ناوروجى الذى أطلقت عليه الهند فى زهو وسرور لقب (شيخ المؤتمر العظيم) . وقد مثل فى المؤتمر منذ نشأته المسلمون والمسيحيون وانصاف الانجليز من الهنود (اى الذين من ام انجليزيه واب هندى) ، بل مثلت جميع الملل والنحل وشتى المذاهب فى المؤتمر تمثيلا وافيا الى حد كبير . وكان المرحوم بدر الدين طاب يتكلم باسم المؤتمر ، كما كان للموتمر رؤساء من المسلمين والبارسيين ، وفى استطاعتى الان ان اذكر على الاقل مسيحيا هنديا واحدا من اشهر انصار المؤتمر هو كالى تشاران بنجرى الذى لم ار فى حياتى هنديا اخلص منه لوطنه .

« وانكم لتعلمون ولا شك ان المرحوم مولانا محمد على الذى نفتقده بيننا اليوم فلا نجده، كان رئيسا للمؤتمر . وتضم لجنتنا العاملة الان أربعة أعضاء مسلمين من بين اعضائها الخمسه عشر ، وقد وليت رياسه المؤتمر ايضا سيدات ، كانت اولاهن

الدكتورة انى بيزانت ، وتلتها مسز ساروجينى نايدو التى هى الان ضمن لجنتنا العاملة ، وبهذا تجدوننا لا نفرق بين جنس واخر .. كما لا نفرق بين الطوائف والمذاهب ..

« وكما يعتقد المؤتمر ان وحدة المسلمين والهندوس ، اى وحدة الطوائف جميعا ، امر لابد منه لتحقيق الاستقلال ، فكذلك يرى المؤتمر ان ازالة وصمة المنبوذين شرط لابد منه لادراك الحرية الكاملة ....

« والمؤتمر يمثل فى جوهره فوق كل شىء تلك الملايين الصامتة ، الجائعة ، المبعثرة طولا وعرضا فى السبعمائة ألف قرية ، سواء منهم أولئك الذين يعيشون فيما يسمونه الهند البريطانية أو مايسمونه الهند الهندية .... فالمؤتمر اذن هيئة فلاحين فى أساسه ، وهو يزداد تمثيلا لهم باطراد. وقد يدهشكم بل قد يدهش الاعضاء الهنود أنفسهم فى هذه اللجنة الفرعية ان المؤتمر قد أوجد الى اليوم ، بواسطة هيئته المسماة (باتحاد غزالى جميع الهند) عملا لنحو ٥٠٫٠٠٠ امرأة فى نحو ٢٫٠٠٠ قرية ، نصفهن تقريبا من المسلمات ، وبينهن آلاف من الطبقة التى يسمونها طبقة المنبوذين ... »

هذا هو تعريف غاندى للمؤتمر وما له من صفة تمثيلية للهند والهنود اجمعين . وقد عنى البانديت جواهر لال نهرو فى دورة كراتشى سنة ١٩٣١ ، باتخاذ قرارات صريحة واضحة لاعلان أهداف المؤتمر ومبادئه الوطنية والسياسية والاقتصادية فى سبعة عشر بندا يهمنا الآن ان نسجل البند الاول منها ، وهو بدوره مؤلف من اربع عشرة نقطة تتناول الحقوق والواجبات الاساسية ، وهذا نصها :

١ ـ لكل مواطن فى الهند حق التعبير الحر عن رأيه ، وحق الحرية فى الاختلاط والاتصال بمن يشاء وحق الاجتماع السلمى ، دون حمل السلاح ، لاغراض لاتتعارض مع القوانين والآداب

٢ ـ لكل مواطن حق التمتع بحرية الاعتقاد ، وحق اعتناق دينه وممارسته ، فى حدود النظام العام والآداب

٣ ـ يجب حماية ثقافة الاقليات ولغتها وكتبها فى مختلف المناطق ذات اللغات المتعددة

٤ ـ جميع المواطنين متساوون امام القانون ، بغض النظر عن طبقاتهم أو عقائدهم أو أجناسهم

٥ ـ لايجوز ان تقام أية عقبة فى وجه أى مواطن بسبب دينه أو طبقته الطائفية ، أو عقيدته ، أو جنسه (ذكرا كان أو أنثى) ، وذلك فيما يتعلق بحقه فى الوظائف العامة أو المناصب الرسمية أو مراتب الشرف ، أو مزاولة أية مهنة أو حرفة

٦ ـ لجميع المواطنين حقوق وواجبات متساوية فى الانتفاع بالآبار والخزانات والطرق والمدارس والمحلات العامة التى تتعهدها الدولة أو الهيئات المحلية ، أو التى يتبرع بها الاشخاص للاستعمال العام

٧ ـ لكل مواطن الحق فى أن يحمل السلاح فى حدود اللوائح والقيود الخاصة بذلك .

٨ ـ لايجوز حرمان أحد من حريته ولا دخول مسكنه واملاكه ولا مصادرتها الا فى حدود القانون

٩ ـ على الدولة أن تلتزم الحياد ازاء جميع الاديان

١٠ ـ يكون الانتخاب على أساس حق التصويت لجميع البالغين

١١ ـ تتعهد الدولة بأن يكون التعليم الابتدائى مجانيا واجباريا

١٢ ـ لايجوز للدولة الانعام بأى رتب أو نياشين .

١٣ ـ عقوبة الاعدام محظورة (وقد نقضت حكومة الهند الوطنية هذا المبدأ فأصدرت حكمها باعدام قاتلى غاندى)

١٤ ـ لكل مواطن حق التجول بأنحاء الهند ، والبقاء أو الاقامة فى أى مكان منها ، وحق الملكية ومزاولة أية مهنة أو حرفة يشاء ، وأن يعامل على قدم المساواة مع الجميع فى المحاكمة

القضائية وفى التمتع بحماية القانون فى جميع أنحاء الهند .

ويلى ذلك سائر البنود ، وهى تتناول علاج الاعداء الثلاثة : الفقر والمرض والجهل . . وهى بعينها الاعداء التى ابتليت بها مصر ، ويظهر أنها « عوامل مشتركة » فى كل بلد نكب بالاستعمار ، ولاسيما الاستعمار البريطانى الذى تمليه وتوجهه السياسة التى دمغها غاندى فى أحد تصريحاته بنعت « الشيطانية » . واذا كان المصريون أو بعضهم قد نسوا أفاعيل هذا الاستعمار فى مصر ، حيث يطيب لدعاة الاستعمار والمدافعين عنه أن يردوا أدواءنا الثلاثة الكبرى الى عوامل أخرى تضافرت مع الانجليز على نكبتنا بهذه الادواء ، فان هناك دليلا ماديا لاسبيل الى التملص منه أو المكابرة فى معناه ومغزاه ، ونعنى به سجل الاستعمار الانجليزى فى السودان وهو تاريخ خمسة وستين عاما من الاستغلال والاستبداد والاستهتار بمصائر الملايين من البشر ، فكانت نتيجة هذه المؤامرة الاستعمارية ما نشهد ، ويشهد العالم ، من تردى السودان فى هوة سحيقة من الجهل والفقر والمرض ، على نحو لايماثله سوى مستوى الحياة فى الهند .

وليس من العسير على أى متجول فى ربوع الهند الفسيحة أن يدرك لاول وهلة أن (الفقر الاسود) هو أنضج ثمرة من ثمار (القرصنة) البريطانية فى الهند التى كان يسميها الانجليز « الجوهرة فى التاج البريطانى » ! وحسبنا تصويرا لهذا الفقر ان نذكر ان متوسط أجر الفلاح يعادل ثلاثة قروش فى اليوم . وان الارض موزعة توزيعا مختلا قلما يوجد له مثيل الا حيث يوجد الاحتلال البريطانى فهناك الثراء الفاحش بين الاقلية المترفة الى جانب الفقر الفاضح بين الاغلبية الساحقة أو على الاصح المسحوقة ... وحتى العدد المحدود الذى يتمتع بالملكية الصغيرة مرهق بالديون العقارية وقد قدرت هذه الديون تقديرا معتدلا قبيل الحرب بنحو ٦٥٩,٠٠٠,٠٠٠ من الجنيهات ، ويتقاضى المرابون فوائد على أموالهم بنسبة تتفاوت بين ٢٥ فى المائة و ٢٠٠ فى المائة ! !

وحيثما كان الفقر ، كان الى جانبه صنوه الاكبر وهو المرض ، ويؤخذ من احصاء رسمي بريطاني ان أكثر من اربعين فى المائة من أهل الهند يعانون من نقص التغذية ، وان عشرين فى المائة يتضورون جوعا بالفعل ! وتتراوح اصابات الملاريا فى العام بين خمسين ومائة مليون اصابة . . كما تبلغ اصابات السل الرئوى نحو مليونين فى كل عام ! !

وجاء فى تقرير رسمى آخر ان نسبة كبرى بين الفلاحين فى اقليم البنغال تعيش على غذاء لا تستطيع ان تعيش عليه الفيران !

وليس عمال المصانع فى الهند بأحسن حالا من مواطنيهم الفلاحين ، فالعامل فى كلكتا (البنغال) أو بومباى يتقاضى فى الاسبوع نحو عشرين قرشا ، ويعيش فى غرفة خالية من الشمس والضوء والماء والاستعدادات الصحية . وقد يعيش كل عشرة أو عشرين فى غرفة واحدة من هذه الغرف ! !

أما ثالثة الاثافى ، وهى الجهل فيكفى لتصوير مدى تغلغله تحت ظل الاستعمار البريطانى ان نذكر ان عدد الاميين بين الهنود يتجاوز ٣١٥ مليون شخص من بين مجموع السكان الذين كان عددهم قبيل الحرب يناهز ٣٨٠ مليون نسمة على وجه التقريب



أقف عند هذا الحد من الاستطراد الذى لم يكن منه بد لتعريف القارىء بالمؤتمر الوطنى الهندى : كيف نشأ ، وكيف نهض وكيف ناضل ، وكيف رسم أهدافه التى ترمى الى تخليص الهند من قبضة الغاصب الذى لا يرحم ، وتخليص الهنود من براثن الفقر والجهل والمرض - مضافا اليها ذلك العدو الذى ابتليت به الهند اكثر من أى بلد آخر من بلاد العالم ، وهو الصراع الطائفى الذى طالما نفخ الاستعمار فى أتونه كلما هدأ ، فلما حان يوم الجلاء الذى لم يكن منه بد ، ضرب المستعمر الفاجر ضربته الماكرة الباترة ، فترك الهند المسكينة فى عيد حريتها تتخبط فى دماء الضحايا الابرياء ، من الهندوك والمسلمين والسيخ على السواء ، من جراء خدعة التقسيم ، والاسلوب الذى جرت عليه السياسة البريطانية فى تنفيذه .

دورة حافلة ..

وصلنا (نكبور) فى صبيحة اليوم التالى بعد رحلة بالقطار من بومباى استغرقت نحو اثنتى عشرة ساعة . وقد حجز لنا ديوان بالقطار من دواوين الدرجة الاولى خلافا لما اعتاده زعماء المؤتمر وأعضاؤه بغير استثناء ، وفى مقدمتهم غاندى ونهرو ، من السفر بالدرجة التى يسمونها بالمتوسطة ؛ وهى أقل من الدرجة الثانية بقطاراتنا . وقد كان غاندى وسائر الزعماء يسافرون بأقل درجة فى القطار ، تمشيا مع خطتهم فى النزول الى أقل مستوى يعيش فيه الشعب ، وهى الخطة التى جعلت غاندى يضرب المثل الفذ حين نزل عن ثروته ، وآلى على نفسه عهدا ظل يحفظه الى ان مات ، وهو ان يقنع من الزاد والملبس بأدنى حد يقدر عليه أفقر فقراء الهنود ...

على ان تجربة السفر فى القطار بأدنى الدرجات أخفقت بسبب تسابق المسافرين الى تقديم أماكنهم وأغطيتهم وكل ما فى استطاعتهم لتوفير أسباب الراحة لزعيمهم الراحل الذى بلغ عندهم مكان القداسة ، بل مافوق القداسة ، حتى لقد أقام بعضهم معبدا لعبادته فى حياته ... فما كان منه الا ان غضب لذلك ، وأمر أصحاب المعبد بتحويله الى مصنع للغزل والنسيج لا لعبادة بشر مثله !

ولهذا رضى غاندى واتباعه من الزعماء وغيرهم ان يركبوا الدرجة المتوسطة فى أسفارهم تفاديا لما يسببه سفرهم بالدرجة التى تحتها من متاعب لهم ولعامة المسافرين ... !

وصلنا نكبور فوجدنا على محطة فى استقبالنا جمعا كبيرا من رجال حزب المؤتمر هندوكيين ومسلمين وسيخ . وفى مقدمتهم جواهر لال نهرو ، رئيس وزارة لهند اليوم

ولم نكد ننفض غبار السفر، ونترك أمتعتنا فى (الاستراحة) ، الحكومية التى اختيرت لاقامتنا ـ وقد كانت وزارة الاقليم يومئذ، كما هى اليوم احدى وزارات حزب المؤتمر الفرعية ـ حتى ركبنا السيارات الى ساحة المؤتمر فى قرية جبلبور . وهناك أخذنا ننتقل بين أكواخ زعماء المؤتمر للتعارف وتبادل التحية. فكانت فرصة نادرة للتحدث فى مكان واحد الى أكبر مجموعة من زعماء الهند الذين يشار اليهم باطراف البنان . فهذا سردار بتل رئيس المؤتمر السابق وزعيم اليمين الشديد البأس (ونائب رئيس الوزراء الآن) ، وهذا عبد الغفار خان زعيم الحدود الغربية المقاتل الذى يلقبونه (غاندى الحدود) ، ويتواضع هو فيقول لنا وهو قائم عند باب كوخه بقامته المديدة المهيبة وجلبابه البسيط ورأسه العارية « اننى لست سوى جندى بسيط فى صفوف غاندى » !!

وهذا زعيم المؤتمر الشيخ الوقور راجندرا برازاد صاحب السلطان غير منازع فى ولاية بيهار وعضو اللجنة التنفيذية العليا للمؤتمر منذ سنة ١٩٢٢ ، وأحد أقطاب المحاماة وأعلام الاقتصاد والتاريخ فى الهند ، وأحد لمجاهدين الافذاذ الذين ضحوا بالثروة والمنصب فى سبيل الحركة الوطنية ...

وهذا مولانا أبو الكلام آزاد أكبر اقطاب المؤتمر المسلمين الذين عاصروا حركة المؤتمر وناصروها وكافحوا التعصب الطائفى وعارضوا كل حركة لتمزيق وحدة الهند . وقد كان من أقطاب الجهاد الوطنى حتى قبل بروز غاندى فى معمعة الكفاح ، وقد قبض عليه فى سنة ١٩١٦ بتهمة التحريض على الثورة وقضى فى سجنه اربع سنوات ، فلم يكد يستنشق

نسيم الحرية فى سنة ١٩٢٠ حتى انضم الى حركة العصيان المدنى، وانتخب رئيسا لحزب المؤتمر سنة ١٩٢٣ (ثم أعيد انتخابه رئيسا خلال سنوات الحرب الاخيرة) . وهو الآن مستشار المؤتمر الاول فى شئون الاسلام والشرق العربى ، وقد كان تشبث غاندى بوجوده الى جانبه فى كل مباحثاته مع الرابطة الاسلامية ، سببا من أبرز أسباب الفشل فى تسوية الخلاف مع المغفور له السيد محمد على جنه زعيم الرابطة وحاكم الباكستان العام السابق ...

وهذه السيدة ساروجينى نايدو شاعرة الهند ، او (بلبل الهند) كما كان يسميها غاندى، وقد جمعت بين الشعر والوطنية ولاقت من ضروب المطاردة والاضطهاد ومصادرة الاموال والنفى والسجن مالا قبل به الا الصناديد الرجال... فاستحقت بجهادها وثقافتها ومواهبها الادبية والخطابية النادرة مكانا عليا بين زعماء الهند وانتخبت رئيسة للمؤتمر ، وعهد اليها بأشق المهام السياسية والخطابية فى كثير من دوراته . وقد كان من أسعد اللحظات فى حياتى يوم رأيتها تخطب بالانجليزية خطبة الختام فى دورة المؤتمر التى شهدناها ، فكان صوتها يجلجل مدويا فى نغمة أقرب الى خشونة الرجال ، وقد راحت ترتجل الكلام ارتجالا وهى تتدفق كالبحر العجاج وتملأ بصوتها المدوى ارجاء الفضاء ، فيسمعه اكثر من مائة الف نسمة ، رغم قلة اكتراثها بما ينبغى من توجيه الكلام فى مكبرات الصوت !

وهكذا تتابعت أمام أعيننا هذه الصور وغيرها من صور العظمة والجهاد والتضحية وانكار الذات ممثلة على أتمها فى هؤلاء الزعماء المجاهدين الذين عرفنا بعضهم ، وجهلنا أغلبهم ، وان كانت قد ضمتنا بهم منصة المؤتمر ايام انعقاده فى تلك الدورة ، ثم أتيح لنا بعد ذلك ان نتحدث الى كثيرين منهم ، والى خصومهم

أيضا فى مآدب التكريم وفى زياراتنا التى امتدت من بمباى الى حدود الافغان

وقد صادفت زيارتنا للمؤتمر فى ذلك العام - عام ١٩٣٩ - ازمة داخلية من أدق الازمات التى عرفها المؤتمر الوطنى فى تاريخه الحافل بالمتاعب والازمات وكانت هذه الازمة التى شهدناها وتتبعنا مراحلها من اللحظة الاولى لوصولنا ، مثالا رائعا للحيوية الدافقة التى تنبض بها عروق المؤتمر ، كما كانت صورة مشرفة للعراك السياسى الذى يقوم داخل الحزب الواحد ، لا فى سبيل مقعد زائل من مقاعد الحكم أو النيابة ... بل فى سبيل الخدمة الوطنية التى يعتقد كلا الفريقين المتنازعين انه أجدر بتوجيهها وأقدر على تحقيقها بوسائله وأساليبه فى النضال .

كان محور الازمة هو الترشيح لرياسة حزب المؤتمر فى الدورة الجديدة . وكان رئيس الدورة السابقة - دورة عام ١٩٣٨ - هو الزعيم الوطنى اليسارى الشاب سوبهاس تشاندرا بوز ، الذى كان يمثل الصورة المتطرفة للنزعة الاشتراكية التى زرع بذورها وتعهدها جواهر لال نهرو على أثر فشل العصيان المدنى سنة ١٩٣٤ ، وكان بوز قائد العناصر المتطرفة التى ترى أن الوقت قد حان لمواجهة الانجليز بانذار نهائى للخروج من الهند فاذا لم يخرجوا خرجت اليهم الجماهير تناضلهم ، ولو بحد السلاح حتى يجلوا عن البلاد ....

ومن هنا استقر رأى بوز على ترشيح نفسه لرياسة المؤتمر مرة أخرى ، رغم اتفاق (القيادة العليا) ممثلة فى غاندى وباتل ونهرو على ، ترشيح أحد رجال اليمين للرياسة ، وكانت النية قد انعقدت على ترشيح مولانا أبو الكلام أزاد ولكنه تنحى عن الترشيح ، مزكيا عضوا بارزا آخر من المؤتمر هو الزعيم الهندى سيتا رامايا ، سكرتير المؤتمر اذ ذاك على ما أذكر .

وكانت معركة حامية الوطيس بين اليسار واليمين ، بين الشدة واللين ، بين التهور والتبصر ، بين المضاء فى الجهاد ، والولاء لزعماء الجهاد الاقدمين ...

وكان أغرب مظاهر هذه المعركة ان طرفيها الحقيقيين خاضا غمارها عن بعد ! غاندى ، زعيم الامة المقدس يديرها من صومعته التى أبى أن يفارقها ليحضر دورة المؤتمر رغم الحاح الجميع عليه وفى مقدمتهم بوز .... وبوز يديرها من فراش المرض فى خيمته بأرض المؤتمر ، وقد اصر على أن ينقل الى جبلبور رغم اشتداد وطأة المرض عليه قائلا انه يؤثر أن يموت بين عشرات الالوف الذين حضروا من اطراف الهند للاجتماع فى هذه البقعة ، وانه ليس من حقه كرئيس المؤتمر فى دورته الماضية ومرشحه فى دورته القادمة أن يتخلف عن هذه الجماهير ، ولو كان مصابا بذات الرئة !!

وكان موقف نهرو من هذه المعركة بين زعيمه الجليل وزميله العليل آية من آيات النضال السياسى فى أنبل معانيه . اذ كان يقسم وقته بين الاشراف على المعركة والخطابة فى تأييد مرشح القيادة العليا للرياسة ،وبين السعى مهرولا الى خيمة منافسه سوبهاس بوز للاطمئنان على صحته ، كصديق وزميل ومجاهد كريم ...

وكان الفوز حليف المرشح اليسارى الثائر العليل سوبهاس تشاندرا بوز !

ولم تكد تعلن هذه النتيجة حتى بادر اثنا عشر عضوا من أعضاء اللجنة العاملة (أى التنفيذية) الخمسة عشر الى الاستقالة من عضوية اللجنة ،وفى مقدمتهم سردار باتل ومولانا ابو الكلام والدكتور براساد ، كما أصدر بانديت نهرو بيانا شديد اللهجة يعلن فيه استياءه واعتراضه على ماحدث ....

ولم يلبث الفريقان لحسن الحظ أن دخلا فى مفاوضات عاجلة لرأب الصدع الذى أصاب بنيان المؤتمر فى يوم افتتاحه ، وانتهى الامر بأن وافقت اللجنة التحضيرية بأغلبية ٢١٠ ضد ١٣١ على اقتراح يتضمن الثقة التامة بغاندى ، والولاء لزعامته ، وعدم اعتبار ماحدث دليلا على أى انحراف عن هذا الولاء .

وقد شفى بوز بعد بضعة أسابيع ، وظل يواصل كفاحه



وجرت التقاليد أن يركب الرئيس الجـديد فيـلا

السياسى رئيسا وعضوا فى المؤتمر ، حتى اذا اندلع لهيب الحرب العالمية الثانية غادر الهند وألف الجيش الوطنى الهندى من بعض مواطنيه المتطوعين الذين يئسوا من كفاح الاستعمار بالخطب والبيانات والجهاد السلبى ، فحملوا السلاح مع القوات اليابانية ، لا لكى يحاربوا فى صفوف المحور ، بل ليناضلوا فى سبيل الهند ، ولو اقتضى نضالهم النبيل أن يحالفوا شيطان المحور ليهزموا شيطان الشياطين وهو الاحتلال !

وقد مات سوبهاس بوز فى حادث طائرة يابانية قبيل انتهاء الحرب . وسيظل اسمه بارزا فى أخلد صفحات الجهاد والتضحية والاستشهاد .

* * *

لم تكد نتيجة انتخابات الرياسة تعلن حتى ألقى أحد أعضاء المؤتمر خطبة الرئيس القديم الجديد سوبهاس بوز ، وفيها تحية لوفد مصر قوبلت بالتصفيق الشديد ، وفيها كذلك تصوير واقعى دقيق لاهم الاحداث الداخلية والخارجية . وهو تصوير يتناول الحالة الدولية على وجه خاص بعبارات موجزة ، ولكنها تكاد تكون منقولة عن صفحات الغيب ... ولاسيما حين تناول الزعيم الشاب اتفاقية ميونيخ ، وتسليم (الديمقراطيات الغربية) للنازية تسليما ذليلا ، وتضافرها على تجاهل روسيا .... وغير ذلك مما يحسن أن أنقل هنا ترجمته الحرفية . وقد استهله بالعبارة التالية مخاطبا رئيس الاجتماع وسائر الحاضرين :

« أيها الرفيق الرئيس ..

« أخواتى واخوتى أعضاء الوفود »

« أشكركم من أعماق قلبى على ما أوليتمونى من شرف باعادة انتخابى رئيسا للمؤتمر الوطنى الهندى ، كما أشكركم على الحفاوة الحارة القلبية التى استقبلتمونى بها هنا فى تريبورى . صحيح انكم بناء على طلبى اضطررتم الى الاستغناء عن بعض

مظاهر الاحتفال الفخم التي جرت بها العادة في مثل هذه الاوحال (١) ولكني أحس بأن هذه الخطوة الاضطرارية لم تذهب بذرة واحدة من حرارة استقبالكم ، وأرجو الا يأسف أحد على اختصار المراسم في هذه المناسبة .

أيها الاصدقاء :

قبل ان استطرد الى موضوع اخر أود ان أردد صدى مشاعركم باعلان ابتهاجنا بنجاح المهاتما غاندى فى مهمته الخاصة بولاية راجكوت (٢) وانتهاء صيامه تبعا لذلك . وان البلاد كلها لتشعر الان بالسعادة وعظيم الارتياح .

ان هذا العام ينذر بأن يكون عاما شاذا من عدة وجوه . فانتخابات الرياسة فى هذه المرة لم تكن من الطراز التقليدى المحفوظ . وقد اعقبت الانتخاب تطورات بالغة الاهمية أدت الى استقالة اثنى عشر من الخمسة عشر عضوا فى اللجنة العاملة ، فى مقدمتهم سردار فالابای باتل ومولانا ا.ك. ازاد والدكتور راجندرا برازاد . وهناك عضو كبير ممتاز آخر فى اللجنة العاملة هو بانديت جواهر لال نهرو ،لم يستقل رسميا ولكنه أذاع بيانا جعل الجميع يعتقدون انه استقال كذلك ، وقد حدث قبيل انعقاد مؤتمر تريبورى هذا أن اضطرت حوادث راجكوت

---

(١) اشارة الى الغاء « موكب الفيلة » الذى يقام عند انتخاب الرئيس الجديد فى كل عام . وقد جرت التقاليد على ان يركب الرئيس الجديد فيلا ، وتتبعه عشرات من الفيلة فى احتفال بالغ الفخامة .

(٢) راجكوت ولاية مستقلة تجاور بمباى . وقع فيها قبيل وصولنا خلاف شديد بين المهراجا وبين الشعب بسبب بعض الاصلاحات الدستورية التى كان المهراجا قد وعد بها . فلما نكث بوعده رغم تدخل غاندى فى الامر . قرر غاندى صياما حتى الموت ، أو يبر المهراجا بوعده وهو ما كان بالفعل ، مما يشير اليه خطاب الرئيس .

ومما يذكر فى هذه المناسبة أن والد غاندى كان رئيسا لوزارة راجكوت . ولهذا كان غاندى ينظر الى مهراجا راجكوت نظرة الوالد الى ولده

مهاتما غاندى الى البدء فى الصوم حتى الموت . ثم وصل رئيس المؤتمر (يعنى نفسه) الى تريبورى مريضا . ولهذا يحق لخطاب الرياسة فى هذا العام ان يتمشى مع مقتضيات الحال فيخالف التقاليد فى اسهابه واطنابه .

وتعلمون أيها الاصدقاء أن البعثة الوفدية القادمة من مصر قد حلت بيننا فى ضيافة المؤتمر الوطنى الهندى . وانكم لتشاركوننى فى تقديم أصدق الترحيب القلبى بأعضاء البعثة جميعا . واننا لسعداء غاية السعادة أن كان فى استطاعتهم تلبية دعوتنا بالقدوم الى الهند . ولا يؤسفنا سوى أن الظروف السياسية القاهرة فى مصر لم تسمح لرئيس الوفد ، مصطفى النحاس باشا ، برياسة هذه البعثة على أن سرورى قد تضاعف اليوم اذ كان لى شرف التعرف الى رئيس البعثة واعضائها الوفديين البارزين . وانى لاعود فأقدم لهم باسم ابناء وطنى أصدق عبارات الترحيب القلبى »

وبعد هذه التحية الكريمة التى قوبلت بالتصفيق الحاد والهتافات من عشرات الالوف واستطرد الرئيس قائلا :

« لقد وقعت منذ اجتماعنا فى هاريبورا فى فبراير سنة ١٩٣٨ ، أحداث هامة متعددة فى المحيط الدولى . وأهمها ميثاق ميونيخ الذى عقد فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، وهو ينطوى على تسليم ذليل لالمانيا النازية من جانب دولتى الغرب فرنسا وبريطانيا . وقد كانت نتيجة ذلك القضاء على فرنسا باعتبارها الدولة الكبرى فى أوربا وانتقال الزمام الى يد المانيا دون أن تنطلق رصاصة واحدة! ويظهر أن تدهور الحكومة الجمهورية فى أسبانيا وانهيارها التدريجى قد زاد فى قوة ايطاليا الفاشية وألمانيا النازية ورفع من هيبتهما ، فتآمرت معهما دولتا الديمقراطية المزعومة فرنسا وبريطانيا ، على استبعاد روسيا السوفيتية من حساب السياسة الاوربية فى الوقت الحاضر ... ولكن الى متى يظل ذلك فى حيز الامكان ؟! على أن الذى لاشك فيه هو أن التطورات الدولية الاخيرة فى أوربا وآسيا على السواء ،

قدنالت كثيرا من قوة الاستعمارين البريطاني والفرنسي وهيبتهما .

« أما سياستنا الداخلية ، فأن اعتلال صحتي يجعلني أجتزيء عن الافاضة فيها بالاشارة الى بضع مسائل هامة . وأبادر أولا فأعبر تعبيرا واضحا لا يقبل الشك أو التأويل عن شعور يخالجني منذ حين ، بأن الوقت قد حان لكي نثير مسألة الاستقلال (سواراج) ونتقدم بمطلبنا الوطني الى الحكومة البريطانية في صورة انذار نهائي ... لقد مضى وانقضى وقت المواقف السلبية والانتظار حتى نتجرع (المشروع الاتحادى) . ولم تعد المسألة متى نرغم على تجرع هذا المشروع ، بل ماذا ينبغي أن نصنع اذا وضع المشروع الاتحادى على الرف بضع سنوات حتى يستقر السلم في أوربا .. ان الذى لاشك فيه أنه اذا استقر السلام في أوربا ، سواء بميثاق رباعي أو بغير ذلك من الوسائل ، تذرعت بريطانيا بالقوة وانتهجت سياسة استعمارية شديدة . وليس مايبدو الآن من علامات الرغبة في استرضاء العرب ضد اليهود في فلسطين الا نتيجة شعورها بالضعف في المحيط الدولى . ولهذا أرى من واجبنا أن نتقدم بمطلبنا الوطنى الى الحكومة البريطانية في قالب انذار نهائي ، مع تحديد أجل معين للرد عليه . فاذا لم نتلق ردا خلال الاجل المضروب أو تلقينا ردا غير مرض ، كان علينا أن نلجأ الى مالدينا من وسائل لانتزاع مطلبنا الوطنى ، والوسائل التى لدينا الآن هى العصيان المدنى الاجماعى (ساتيا جراها) . والحكومة البريطانية اليوم ليست في موقف يسمح بمواجهة كفاح ضخم كالعصيان المدنى العام الى أجل بعيد .

« ويحز في نفسى أن أجد في المؤتمر أناسا يبلغ بهم التشاؤم حد الذهاب الى أن الوقت لم يحن بعد لمبادأة الاستعمار البريطانى بهجوم واسع النطاق ، ولكنى حين أعرض الموقف عرضا واقعيا محضا لا أجد أدنى مبرر لهذا التشاؤم . فان اضطلاع المؤتمر بأزمة الحكم في ولايات ثمان قد رفع من مكانة هيئتنا الوطنية

وشد أزرها وسار بالحركة لشعبية فى الهند البريطانية (١) شوطا بعيدا الى الامام . وأخيرا وليس اخرا ، هناك نهضة لم يسبق لها مثيل فى الولايات الهندية . فأية لحظة أنسب من هذه فى تاريخنا الوطنى للزحف النهائى نحو الاستقلال (سوا راج) ولاسيما ان الموقف الدولى يلائمنا . ! اننى اذ أتكلم كرجل واقعى هادىء أستطيع أن أقول ان كل عناصر الموقف الحاضر وحقائقه الواقعة تلائم مصلحتنا الى الحد الذى يبرر أقصى درجات التفاؤل . فاذا نحن قضينا على خلافاتنا ، ووجدنا جميع كفاياتنا ، وحشدنا للجهاد الوطنى كل قوتنا لما استطاع الاستعمار البريطانى أن يصمد لهجمتنا ! فهل يتوفر لدينا من بعد النظر السياسى مايكفل لنا استغلال موقفنا الملائم الحالى الى أقصى حدود الاستغلال ، أو نضيع هذه الفرصة النادرة فى حياة أى شعب من الشعوب ؟ »

وبعد استطراد يسير لفت الرئيس فيه أنظار المجتمعين الى واجب المؤتمر نحو شعوب الولايات فى الهند الهندية ، عاد الى دعوته للجهاد فقال :

« لقد أشرت فيما سبق الى ماينبغى علينا من القيام بزحف نهائى نحو الاستقلال . وهذا يقتضى أن نعد للجهاد عدته . . وأول ماينبغى فى هذا الصدد هو أن تتخذ الخطوات لكى نقضى فى غير رحمة على أى عنصر من عناصر الفساد أو الضعف تسرب الى صفوفنا لاسباب مرجعها فى الغالب بريق الحكم الجذاب وعلينا بعد ذلك أن نعمل فى تعاون وثيق مع جميع الهيئات التى تحارب الاستعمار فى البلاد ، ولاسيما حركة الفلاحين (كيسان)

---

(١) تمييزا لها عن « الهند الهندية » وهى التى كان يحكمها المهراجات والراجات والحكام المسلمون .

أما الهند البريطانية فهى احدى عشرة ولاية تضم أقاليم أسام والبنغال وبيهار واوريسا وبمباى والاقاليم الوسطى والاقاليم المتحدة والبنجاب والسند والحدود الشمالية الغربية - وهذا بالطبع قبل التقسيم وظهور الباكستان وانضمام الولايات كلها للهند .

وحركة اتحاد العمال ، فلابد لجميع العناصر الراديكالية من التعاون وتنسيق العمل فيما بينها ، ولابد من توحيد جهود المنظمات المعادية للاستعمار حتى تتضافر كلها فى توجيه الهجوم الحاسم على الاستعمار البريطانى

واختتم الرئيس المتطرف خطبته ، أو على الاصح رسالته بهذه العبارة التى قوبلت بعواصف من التصفيق والاستحسان .

« ايها الاصدقاء . ان جو المؤتمر اليوم ملبد بالغيوم ، وقد بدت للعيان بوادر الانقسام والخلاف ولهذا يشعر كثير من اصدقائنا بالحزن والقنوط .

« ولكنى مؤمن بوطنية مواطنى واثق من اننا قبل ان ينقضى زمن طويل سنذلل الصعاب القائمة ، ونعيد الوحدة الى صفوفنا . وقد طرا موقف يشبه هذا الموقف فى مؤتمر جويا سنة ١٩٢٢ ، عندما انشأ داشباندوداس وطيب الذكر باندیت موتلال نهرو حزب الاستقلال ، فلنستلهم فى أزمتنا الحاضرة روح المأسوف عليه (جورا) والطيب الذكر موتلالجى (١) وغيرهما من ابناء من ابناء الهند العظام ، وانى لارجو مخلصا من المهاتما غاندى — الذى ما زال معنا مرشدا وهاديا ومعينا للامة — ان يساعد المؤتمر على الخلاص من أزمته الحاضرة »

هذه خطبة الرياسة التى ألقيت على مسامعنا باسم الزعيم الشاب الثائر شوباس بوز ، وقد أعدها بنفسه رغم اشتداد وطأة المرض عليه ، وفيها من آيات الوطنية ، والجرأة ، وبعد النظر وسعة الافق ما يدل على مبلغ الخسارة التى اصابت الهند بفقده فى حادث طائرة يابانية فى فترة نضاله الدموى ضد الاستعمار البريطانى فى الحرب الماضية .

تحية نهرو

وقد القى الباندیت نهرو على اثر خطبة الافتتاح كلمة هذا نصها :

---

(١) تضاف « جى » على الاسم الاول فى الهند دلالة على التعظيم ، فهم يقولون عادة « غانديجى » أو « مهاتماجى » او « جواهر لال جى » الخ الخ ...

سيداتى سادتى :

بين ظهرانيكم اليوم بعثة الوفد المصرى التى شرفت الهند لحضور هذا المؤتمر اجابة للدعوة التى وجهت اليها من رئيس هذا المؤتمر وقد حضرت الان تحمل اليكم رسالة اخلاص ومحبة وصداقة من الشعب المصرى الكريم وزعيمه الامين مصطفى النحاس باشا فانا ارحب بها اليوم اجمل ترحيب واحييها اعظم تحية واقدر رسالة الاخلاص هذه حق قدرها وانا ارجو من صميم قلبى ان تعود هذه البعثه وهى تحمل الى الشعب المصرى الكريم والى زعيمة الوفى الامين مصطفى النحاس باشا نفس هذه الرسالة ونفس هذا الود ، ونفس هذا الحب وهذا العطف من شقيقتها الهند

ولقد كان من دواعى الاسف الشديد فى الوقت الذى تتلهف فيه الهند بأسرها لرؤية زعيم مصر العظيم ان تحدث موانع وان تقع عوائق تمنع من تحقيق رغبة الهند برؤيته ووجوده بين ظهرانينا الان فى هذا المؤتمر وعلى راس هذه البعثة ولكن عسى ان يتحقق هذا الامل فى المستقبل وان تحظى الدورة المقبله لهذا المؤتمر بشرف حضور هذا الزعيم الجليل

خطاب وفد مصر

وعلى أثر ذلك ألقى المرحوم بسيونى بك باللغة العربية خطابا بأسم الوفد ، ثم تلاه الاستاذ محمود أبو الفتح بترجمة انجليزية وفيما يلي نصه :

حضرة الرئيس

حضرات الاعضاء

سيداتى ، سادتى .

أقدم لحضراتكم بالنيابة عن زملائى وبالاصالة عن نفسى أعضاء بعثة المودة والصداقة التى أنابها الوفد أصدق شكرنا على دعونكم الكريمة وحفاوتكم البالغة ، كما انقدم لكم تحية صادرة من سويداء القلوب سداها الاخلاص ولحمتها المحبة والولاء والوفاء ، وقد كان ولايزال الاشتراك فى مؤتمركم العظيم أعز أمانى زعيم الامة

المصرية مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد وأعضائه جميعا ولم تحل ظروف طارئة دون حضور الرئيس بشخصه، ولا يعادل سرور زملائي وسروري بانتدابنا لهذه المهمة النبيلة الا احساسنا بالشرف العظيم اذ ننوب عن الوفد الذي يمثل الشعب المصري بأكمله في ابلاغ الشعب الهندي المجيد أسمى عواطف الود والاخاء وأصدق التحيات والتمنيات .

سيداتي ، سادتي :

لقد اثارت فينا هذه الرحلة المباركة شعورا عميقا تبعثه أوجه الشبه المتعددة التي بين البلدين والتي ترجع بنا الى الماضي البعيد، يجمع الشرق بين بلدينا، والشرق مهبط الوحي ومصدر الفلسفة والحكمة ومبعث الاديان التي تحث على التآلف وبث روح المحبة في القلوب، وتحكيم المثل العليا كي يعيش الناس متصافين وتتوفر أسباب الخير والسعادة لهم جميعا. ولم يقتصر مجد البلدين التالد على ماالديهم من هذه الكنوز النفيسة بل ورثا ميراثا رائعا من حضارة عمرانية ترجع الى فجر التاريخ، ومدنية كانت زاهرة رائعة حين كان سائر العالم يتخبط في ظلام الجهالة والتأخر

وشاءت الاقدار أن تتنكر لبلدينا فاشتركا في مصاب واحد وذاقا كأسا واحدة فاتفقت مشاعرهما وتماثل احساسهما وكان طبيعيا أن تتماثل نهضتهما وتتشابه قيادتهما وتتقارب فيهما وسائل الدفاع والنضال .

لقد بدأت النهضة المصرية الحديثة سنة ١٩١٨ بزعامة المغفور له سعد زغلول وكذلك قامت النهضة الهندية الحديثة بزعامة المهاتما غاندي .

تحمل المهاتما وزملاؤه المخلصون، من هندوكيين ومسلمين وغيرهم صنوفا من الاضطهاد والتنكيل فقابلوها بصدر رحب وامعان في الجهاد وبذل في التضحية كما تحملها قادة النهضة في مصر وكانوا مثل اخوانهم الهنود ذوي عزيمة لاتكل وقناة لاتلين

إتفق الشعبان في المبادىء كما اتفقا في الوسائل فقد شيدت

نهضتهما على صرح الاتحاد بين عناصر الامة المختلفة

نادى بذلك المغفور له سعد زغلول باشا فى مصر فلبى المصريون على اختلاف مللهم ونحلهم نداءه وهبوا صفا واحدا كالبنيان المرصوص والتفوا حول وفدهم وزعامتهم التى حمل رايتها سعد حتى مات فى ميدان الجهاد فحملها من بعده مصطفى النحاس وسار بها من نصر الى نصر ، ومن فوز الى فوز ، فقد كان من أثر توحيد الصفوف والالتفاف حول الوفد والثبات على مبادئه ان وصلت مصر الى عقد معاهدة استقلال وصداقة مع بريطانيا العظمى وعقد معاهدة الغاء الامتيازات مع الدول الاجنبية وتبوأت مصر كدولة مستقلة مقعدها بين الدول فى عصبة الامم

وكذلك فى الهند أسس المهاتما غاندى نهضة على التآلف بين العناصر المختلفة

سيداتى ، سادتى .

ما أحرى بلدينا بالاتصال الدائم وما أحرى ان تكون هذه البعثة فاتحة خير وبركة تتوالى بعدها البعثات بين البلدين كل عام حتى تتقوى الروابط وتقرب ما بينهما من علم وثقافة ، وانه لمن دواعى سرور الوفد وزعيمه الجليل أن نرى مندوبين عن مؤتمركم الموقر يحضرون المؤتمر الوفدى الذى سيعقد فى أواخر شهر ابريل القادم

وما أحرى ان تتسع دائرة الاتصال الى ان تشمل الامم الشرقية جميعها ولعل من بواكير ذلك الاتجاه اجتماع ممثلى الشعوب العربية فى مؤتمر فلسطين تحوطهم بقية الشعوب الشرقية بعطفها وتأييدها

ان مصر أيها السادة ، التى تربطها بالدولة البريطانية معاهدة الصداقة والتحالف ، لتجد واجبا عليها ووفاء منها لهذه المحالفة الا تتردد فى الاهابة بحليفتها أن تستجيب الى نداء الوطنية الصادر من قلوب مئات الملايين من أبناء هذه البلاد فتقيم علاقاتها بها على أسس وطيدة من الصداقة الخالصة المتبادله والتعاون الحر

سيداتى سادتى

من أشد مايبهرنا هذا الحفل الرائع ، وهذه الجموع الهائلة أتية من بقاع الهند المختلفة المترامية ، تمثل مئات الملايين من جميع الاديان والمذاهب ، يعملون جميعا على تحقيق أمنية الهند الكبرى التى يحنو عليها قلب كل هندى ، بل قلب كل مصرى ، بل قلوب الشرقيين جميعا . .

قرار المؤتمر

وقد وقع خطاب الوفد المصرى فى نفوس رجال المؤتمر وقعا طيبا ، وكان يقاطع بالتصفيق الحاد من عشرات الالوف الحاشدة ، فلما عقد المؤتمر اجتماعه العام فى مساء يوم ١١ مارس عرضت عليه لجنة الموضوعات القرار التالى فأقره بالاجماع :

« يقدم المؤتمر ترحيبه الودى الى بعثة المودة والصداقة التى أوفدها الوفد المصرى بالنيابة عن جميع ارجاء مصر ويعد هذه الزيارة رمزا للتضامن فى الحركات الخاصة بحرية مصر والهند ، ويبعث المؤتمر بتحياته القلبية الى شعب مصر ، وبأخلص تمنياته للنجاح التام فى احراز الحرية الكاملة . والمؤتمر موقن بأن تعاون شعبى مصر والهند سيزداد توثقا على الدوام ، وسيكون أكثر نفعا فى خدمة السلم والحرية فى العالم »

برقية من غاندى

وقبل ان نغادر تريبورى الى الله اباد ، مسقط رأس نهرو ، تلبية لدعوته تلقينا من المهاتما غاندى برقية يقول فيها :

« سررت كثيرا ببرقيتكم الودية ، وأرجو ان يكون قد تحقق لكم بعض ماكنتم تتوقعونه سأصل الى دلهى فى ١٥ مارس . فأرجو ان أقابلكم هناك »

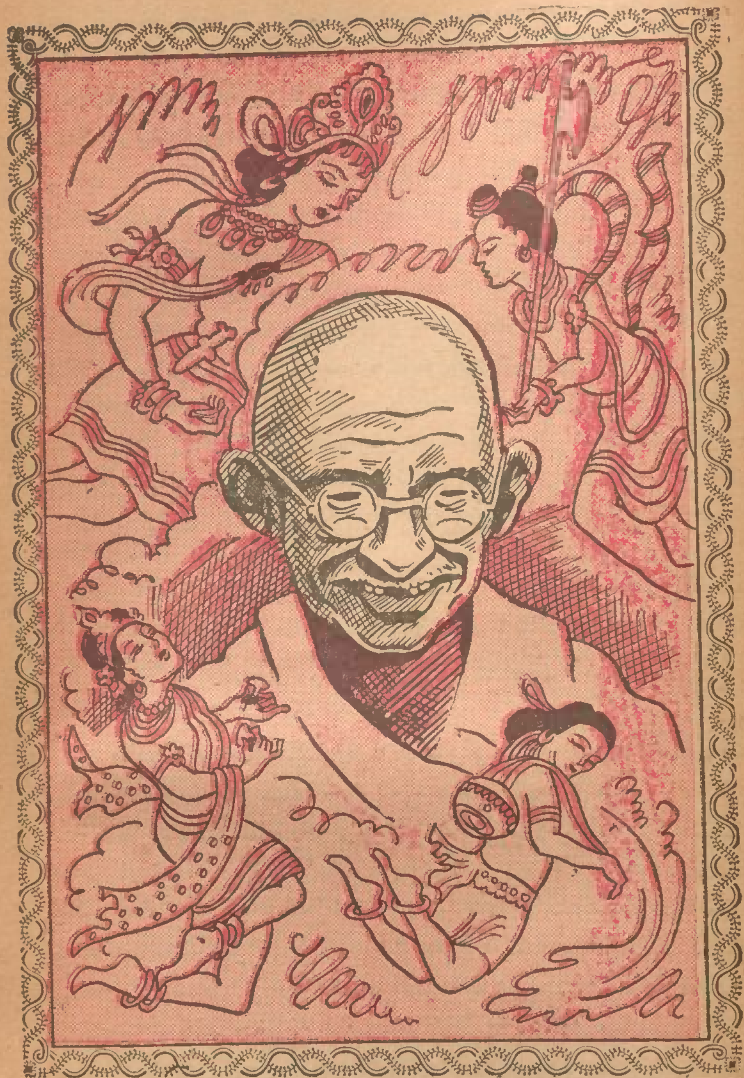
« غاندى »

فى حضرة غاندى

وفى جو الحفاوة القلبيــة التى سعدنا بها فى تريبورى غادرنا المدينة الى الله أباد حيث نزلنــا ضيوفا على البانديت نهرو ، وقد رافقنا فى القطــار ومعه كريمتــه ومولانا ابو الـكلام ، فلما بلغنــا مدينة الله أباد وجــدنا من آيات الحماسة الوطنيــة ، والتنظيــم الحــزبى ، كما يتمثل فى لجــان المؤتمر ، أمثلة جديرة بالاعجاب والتقدير . ولاغرو فان الله أباد ليست مسقط رأس نهرو فحسب ، ولكنها أيضا مقر المركز العــام لحزب المؤتمر ، وهو يقــع فى دار شامخة وهبها والد نهرو ، الزعيم الكبير موتلال نهرو لتكون مقــرا للحزب .

وفى جانب من هذه الدار أقيم مستشفى للفقراء سـمى باسم السيدة المجاهدة النبيلة (كمالا نهرو) زوجة جواهر لال نهــرو تخليــدا لذكراها ، وتمجيدا لتضحياتها المأثورة وجــهودها فى ابان الحركة الوطنية ، اذ كانــت تنزل الى الشــوارع بنفسهــا لاسعاف جرحى المظاهرات الذين كان الانجليز يرفضون نقلهم الى مستشفيات الحكومة ، فـكانوا ينقلون الى دار نهرو حيث يظفرون بالعناية والمواساة والنجدة مــن يدى (كمــالا نهرو) وزميلاتهــا النبيلات . فلما توفيت قبيــل الحرب الاخيرة اكتتب الاهــلون بمبالغ كبيرة وأقاموا مستشفى كبيرا لعلاج الفقراء أطلقوا عليــه اسم كمالا نهرو ، ووضع غاندى حجر الاساس فيه .

وفى الله أباد أقيم بمناسبــة حضورنا اجتمــاع عام عقــد فى حديقة واسعة الارجاء وحــضره أكثر من عشرين ألف شــخص .



وقد جلسنا ، ومعنا البانديت نهرو فوق منصة عالية ، وكان ظهورنا ايذانا بعاصفة مؤثرة من الهتافات لمصر والوفد . ثم نهض البنديت نهرو فالقى خطابين بالهندستانية والانجليزية تحدث فيهما باسهاب عن الحركة الوطنية فى مصر ، وقيادة سعد زغلول الذى قال ان الهند كلها كانت تعرفه وتقتفى خطاه ، وانتقال زعامة الوفد من بعده الى النحاس باشا ،وأفاض نهرو فى الاشادة بوطنية النحاس باشا ،وتضحياته وخدماته لبلاده ، ثم تكلم عن قوة الوفد فى مصر وأهمية تبادل البعثات بين الوفد والمؤتمر ، وضرورة التعاون بين مصر والهند وتبادل المعلومات عن أحوال البلدين مباشرة دون وساطة الشركات الاجنبية .

وأعقب ذلك خطاب حماسى ـ باللغة العربية ـ ألقاه المرحوم بسيونى بك وكان مداره التنديد بالخلاف بين عنصرى الهند الكبيرين ، ودعوتهما الى توحيد الصفوف بعبارات مؤثرة ، كان أثرها ينعكس فى التصفيق الشديد الذى قوبلت به معظم فقرات الخطاب .

وتكلم الاستاذ أبو الفتح بالانجليزية فضرب مثلا للاتحاد بما حدث فى مصر بين المسلمين والاقباط ، واختتم خطابه بتحية ابن (الله أباد) البار الزعيم الخالد الذكر موتيلال نهرو . فتعالت الهتافات له ،ولمصر وزعماء مصر .

وفى مساء اليوم نفسه سافرنا بالقطار الى لكناو عاصمة المقاطعات المتحدة ، فوصلنا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم الثانى ، واذا فى استقبالنا السيد بانديت زوج شقيقة نهرو (وقد توفى أثناء الحرب الاخيرة) وكان محاميا معروفا ، وسكرتيرا عاما للجنة المؤتمر العامة فى المقاطعات المتحدة كما وجدنا فى استقبالنا عددا كبيرا من أعضاء المؤتمر ، وبعد أن استرحنا بفندق كارلتون ذهبنا الى دار البرلمان لزيارة مجلس النواب (ويسمونه الجمعية التشريعية) وقد حضرنا جانبا من الجلسة ، وكان مما لفت أنظارنا وجود سيدات بين الاعضاء ،وعددهن احدى عشرة سيدة بينهن سيدتان مسلمتان .

ومن طريف ماحدث يومئذ ـ وكيف أنساه ؟ ـ ان أحد سعاة المجلس اقترب مني أثناء جلوسنا في الشرفة وهمس في أذني بأن نائبة في المجلس تدعوني لكي تتحدث الي ، فذهبت معه ، واذا به يصحبني الى قاعة الاستقبال واذا سيدة تلبس الحجاب السميك الذي يسمونه (البرده) وهو يحجب الوجه كله ولا يترك سوى ثقبين تنظر السيدة من خلالهما الى محدثها . .

ولم تصافحني السيدة النائبة ـ وهي احدى النائبتين المسلمتين ـ ولكنها بادرتني بايماءة من راسها قائلة :

ـ لقد دعوتك باعتبارك أصغر أعضاء البعثة القادمة من مصر . . فقلت :

ـ هذا شرف عظيم ياسيدتي . . .

فقالت ـ هل التعليم منتشر بين المصريات ؟

قلت ـ انه في تقدم كبير ياسيدتي . .

قالت ـ وهل تخرج المرأة المصرية الى الطرقات ؟ لقد بلغني أنها تركت الحجاب وأصبحت سافرة ؟!

ثم أضافت بلهجة ملؤها الجزع :

ـ هل هذا صحيح ؟ !

قلت ـ صحيح ياسيدتي ، فنحن لانعرف الحجاب الذي تتمسكون به هنا ، ومع ذلك فأرجو ان تطمئني الى ان الاسلام بخير في مصر . .

وكأنما أحست بخيبة أمل شديدة فاكتفت بأن حملتني التحية الى بقية أعضاء البعثة راجية لمصر الخير والتوفيق ، دون أن تخفي عجبها لتنازل مصر عن الحجاب !!

وفي الساعة الثالثة زرنا دار الشعبة العامة للمؤتمر في لكناو فرسخ لدينا مبلغ حرص المؤتمر على تنظيم لجانه وشعبه في جميع أنحاء البلاد على أساس محكم دقيق .

وفي الساعة الخامسة أقامت لنا وزيرة الصحة مسز بانديت شقيقة نهرو ، وسفيرة الهند في الولايات المتحدة الآن ، حفلة شاي

كبيرة فى حديقة دارها الانيقة حضرها أكبر الشخصيات من مختلف الاحزاب والهيئات .

وعدنا من لكناو الى دلهى فتجددت حفلات التكريم ، ومن بينها حفلة شاى كبرى أقامها زعيم نواب المؤتمر فى الجمعية التشريعية المركزية المرحوم بولاباى ديساى جمعت بين كبار رجال المؤتمر والشخصيات البارزة من المسلمين والهندوس وكبار الموظفين الانجليز والهنود .

فى حضرة غاندى

وفى يوم ١٨ مارس ، فى حديقة قصر بيرلا (بيرلا هاوس) بنيودلهى ، حيث قتل غاندى وهو يتأهب للصلاة ، متجها الى الله بكل جوارحه ـ فى ذلك اليوم وفى ذلك المكان أسعدنى الحظ بفترة خالدة من العمر قضيتها مع غاندى ، وتحدثت اليه ، واستمعت اليه ، وملأت نفسى من فيض قدسيته وروحانيته ..

ان ذكرى هذا الاجتماع مازالت حية ماثلة بتفاصيلها فى ذهنى حتى الان ، كما لو كانت قد حدثت بالامس القريب

فها نحن اولاء ، فى صحبة البنديت نهرو ـ خليفه غاندى ـ والدكتور الانصارى ، الذى يمثل اسرة اسلامية عريقة متفانية فى الاخلاص لغاندى وزعامته .. ها نحن اولاء قد وصلنا الى قصر بيرلا قبيل الظهر بعد جولة خاطفة فى بعض معالم دلهى الجديدة

ولقد وصلنا قبل الموعد بدقائق معدودات ، ولابد أن نحظى بالمثول فى حضرة الزعيم القديس فى موعدنا ، لا نتقدم دقيقة ولا نتأخر . ان مواعيد مقابلاته تحدد تحديدا دقيقا قبل حلولها بأيام .. لا تكبرا ولا تمنعا ، ولكن تنظيما للسيل الدافق من طلبات الاجتماع بالزعيم ، وهى طلبات تتلقاها سكرتيريته من زعماء المؤتمر وكبار الاعيان ، وكبار الوافدين من الخارج ، والصحفيين الاجانب والهنود وصغار المواطنين الذين يقطعون الوف الاميال املا

فى الحظوة بكلمة ، او نصيحه او ابتسامة ، او لمحة من غاندى يستمدون منها البركة والسعادة مدى الحياة

هذا الى جانب واجباته اليومية من اداء الصلاة ، والقاء الدروس الدينية ، ومطالعة الرسائل ، وكتابة المقالات لجريدته التى كان يسميها (الهند الفتاة) ثم جعل اسمها (هاريجان) اى ابناء الله ، وهو الاسم الذى اطلقه على المنبوذين .. وهناك مشاوراته الدائمة مع قادة الحزب ، ومشروعاته الاجتماعية التى لا تنتهى ، لاتقف عند حد ، لتعليم الشعب وازالة الفوارق بين طبقاته ، ونشر الصناعات الضرورية كالغزل والنسيج ، لسد حاجاته الاوليه ، ورفع مستوى معيشته ، وتمكينه من الاستغناء عن واردات انجلترا وغيرها من البلاد الاجنبية

هذه بعض اعباء الزعيم السياسى ، والروحى ، والاجتماعى الذى كان يجتاز يومئذ عامه السبعين .. والذى استقبل بعثتنا المصرية يوم وصولها ببرقية الى وزير داخلية بومباى ، ينيبه عنه فى الترحيب بنا ، ويعرب عن امله الوطيد فى ان تكون زيارتنا فاتحة خير لتوثيق عرى الروابط التى لا تنفصم

بين مصر والهند

هانحن أولاء ندعى الى التشرف بلقاء الزعيم .. لقد هممنا ان نجتاز اعتاب قصر بيرلا الذى لابد ان تكون افخم قاعاته قد خصصت للمقابلات .. ولكنهم يتقدموننا الى طريق الحديقة ، فلا نكاد نمضى خطوات حتى نجد الزعيم الشيخ واقفا يتلقانا بابتسامة نحس انها كافيه وحدها للتعبير عن اكرم معانى الترحيب والغبطة والشوق الى رؤيتنا ..

ونظرت من حولى فلم اجد سوى سرير بسيط من (الجريد) وعدد محدود جدا من المقاعد الخشبية البسيطة دعينا الى الجلوس على بعضها ، واضطجع غاندى على سريره ، مشيرا الى رئيس البعثه محمود بسيونى بك - رحمة الله عليه - ان يجلس معه على جانب من السرير ... بينما جلس الباقون على الارض

يحيطون بالسرير فى بساطة لاعهد للقادة والزعماء بها فى القرن العشرين !

وبادر نهرو الى اخراج عدسته المصورة التى يحملها فى عنقه دائما كلما خرج الى رحله او زيارة ، فما كاد يبدأ فى التقاط صورنا فى حضرة الزعيم او « الاب » كما يسمونه ، حتى ضحك غاندى ملء شدقيه وقال بالانجليزيه مداعبا فى حنان ظاهر: لقد عاودته نوبة التصوير من جديد !

وجلسنا اليه فبادرنا قائلا :

« أكرر لكم ماسبق ارساله اليكم ببرقيتى ، وهو أنى آمل ان يكون تبادل الزيارات فيما بيننا سببا فى توثيق عرى الاتحاد التى لاتفصم بين مصر والهند ، وأقول هذا لا كمجرد رغبة يقصد منها المجاملة ، ولكنها رغبة حقيقية صادرة عن شعور خالص . انكم تمثلون أمة اسلامية ونحن لدينا عشرات الملايين من المسلمين ، وكثيرون منهم يمثلون أعلى درجات الثقافة ، فالاتصال بيننا سيساعدنا على حل مشاكلنا . وليس هذا لان البلدين شرقيان فحسب ، بل لانهما أيضا فى حاجة حقيقية الى التعاون . وهذا الاتصال المباشر أساسى الى أقصى حد »

واستطرد غاندى فتحدث الينا حديثا ملؤه الاعجاب بمصر وحركتها الوطنية التى قال انه يتابعها باهتمام شديد من عهد المغفور له سعد زغلول باشا . . . وقد سألنا عن رفعة النحاس باشا ، مبديا أسفه لعدم تمكنه من حضور دورة المؤتمر بنفسه . ثم قال :

— كم عمر النحاس باشا الآن ؟

فقلت: ثمانية وخمسون عاما . .

فأجاب : انه مازال شابا ! .

وفى ختام الحديث توجه الينا بنصيحة شدد فيها كثيرا ، وهى أن نزور حيدر أباد ، أكبر ولاية فى الهند على رأسها حاكم مسلم .

وخرجنا كالمأخوذين بسحر هذا الزعيم ، النحيل ، الضئيل





فوق ـ اعضاء بعثة الوفد فى حضرة غاندى
تحت ـ البعثة الصحفية على قبر غاندى

الذى استطاع بضعفه وزهده ،واستهانته بالسجن ، والاعتداء ، والتعذيب ، وايمانه الهائل بقوةالحق التى لاتقهر ، أن يحطم كبرياء الاستعمار البريطانى الجبـــارويقوض أركانه من الاساس !

* * *

وقدلقى غاندى مصرعه برصاص هندوكى متعصب ينتمى الى حزب « هندوماهاسابها » . . فما هو هذا الحزب ؟ لقد كان الباندیت نهرو يشرح لى ذات يوم مبادىء المؤتمر الوطنى فكان مما قاله : ان حزب المؤتمر لايعترف بالنزعات الطائفية فى جهاده ، ولهذا يقضى نظامه بألا يقبل فى عضويته أحدامن المنتمين الى أية جمعية طائفية اسلامية كانت أو هندوكيـة . ولهذا ايضا نرفض ان نقبل فى صفوفنا أعضاء الحزب الهندوكى الذى يسمى (بالهندومهاسابها) لا لانهم خـونة للوطن ، وأعـداء لاستقلال الهند ، بل لانهم أنشأوا حزبهم على أساس طائفى محض باعتبارهم هندوكين ، أما المؤتمر فهو هندى ينشد الحرية لجميع الهنود . وقد كان طبيعيا أن يثور المتعصبـون فى الهنــد ، ازاء موقف غانـدى الاخـــير وتهديده بالصيام حتى الموت اذا لم يوضـع حد للصراع الدموى ضد المسلمين . . . فشاء القدر الا أن يدفع غاندى حياته ثمنا لرسالة التسامح التى بشر بهـا ووقف حياته عليها !

أليس هو القائل عن دينه :

« ان دينى يزودنى بكل ماأحتاج اليـه لنضوجى الداخلى ، لانه يعلمنى الصلاة . ولـكنى أرجو أيضـا أن يستكمل كل انسـان غيرى نضـوج نفسه من طريق ديانتـــه — فيزداد المسـيحى مسيحيـــة ، ويزداد المسـلم اسلاما . اننى مقتنع بأن الله يوما من الايام سيسألنا عن قيمتنا ،وعما نفعل ، لا عن الاسم الذى نطلقه على وجودنا أو فعالنا » !

بل أليس هو القائل يوم أحاط به نفر من الهنود المتهوسين عقب ميثاقه مع اللورد ايروين ، وهموا بالاعتداء عليه لاتهـامه « بخيانة وطنه ! » اذ قبل ذلك الميثاق :« انــكم تقـولون اننى خنت

الهنـد . وأنا لن أشكو اذا ضربتمـونى . وليس لى من حرس ، فالله وحده يرعانى . واذا كان بعض النـاس يعتقد أننى أحمق أو مجنون لاننى احب اعدائى ، فليعلموا ان هـذا هو اساس عملى كله وعقيدتى طول حيـاتى ... وهأنذا لا املك سلاحا ازاءكم سوى الحب » !

ومع ذلك ، فان غانـدى لم يكن جبانا فى يوم من أيام حياته ، بل انه قال فى ابان دعوته لعدم العنف : « حيثما يتعين الاختيار بين الجبن والعنف ، فاننى أنصح بالعنف .. وخير لى ألف مرة أن اخاطر باتخاذ خطة العنف من ان اخاطـر بروح الرجـولة فى الشعب ، وخير لى ان ادعو الهند الى حمـل السـلاح دفاعا عن شرفهـا ، من ان اراها تصبح ،عن جبن ومذلة ، فريسة عاجزة لعارها وضياع شرفها

« ولـكنى أعتقد أن عدم العنف يفـوق وسـيلة العنف تفوقا ليس له نهاية » !

* * *

هذه لمحات وامضة عن الرجل الذى فقدته الهند ، والشرق ، والعالم اجمع ، ففقدت الانسانية فيـه مثـلا أعلى فى الزعامة والقداسة، والتسامح، والزهد ،والتضحية حتى بالروح !



خاتمة المطاف

وكانت خاتمه المطاف بعد زيارة دلهى رحلتنا الى لاهور ، عاصمة البنجاب ، حيث قضينا يوما حافلا بالزيارات والمآدب ، واضطررنا الى الاعتذار من عدم استطاعتنا قبول عدة دعوات واستأنفنا السفر بعد العشاء بالقطار الى بشاور عاصمة اقليم الولايات الشمالية الغربية تلبية لدعوة الزعيم المجاهد الكبير خان عبد الغفار خان ، الملقب بغاندى الحدود (وهو الان مع الاسف يقضى فترة من السجن على يد حكومة الباكستان ، بعد محاكمة من اعجب المحاكمات السياسية)

ولم أشهد ، ولا أظنني سأشهد فى حياتى ، موكبا وطنيا حاشدا كموكب البعثة المصرية من محطة بشاور الى دار رئيس الوزراء الدكتور خان صاحب شقيق عبد الغفار خان (وهو ايضا من المسجونين السياسيين الان !)

ويكفى ان اقول ان البعثة طافت بعد الغداء ارجاء المدينة فى موكب من السيارات ، فكان يحافظ على النظام اكثر من مائة الف متطوع من الذين يسمون (خدام الله) بملابسهم الحمراء ، فضلا عن عشرات الالوف من الاهلين الذين اكتظت بهم الشوارع حتى اضطرت السيارات للتوقف عن المسير غير مرة ، ووصل الموكب بعد نحو ساعتين الى حديقة واسعة احتشد فيها نحو ثمانين الفا ، جلسوا الى الارض ، وخطب فيهم خان عبد الغفار خان باللغة الافغانية ثم ترجمت خطبته الى العربية ، والقى بعدها عدد من الخطب والقصائد ، رد عليها

المرحوم الاستاذ بسيونى بك - باللغة العربية - شاكرا للحاضرين حفاوتهم ، منوها بفضل السيد جمال الدين الافغانى الذى تخرج على يديه الشيخ محمد عبده وسعد زغلول مؤسس الوفد الذى خلفه مصطفى النحاس فكانت هذه الاسماء وحدها كافية لاطلاق عواصف داوية من التصفيق والهتاف ، ولا سيما بعد ترجمة « الخطبة الى اللغة الافغانية »

وتناولنا طعام العشاء على مائدة رئيس الوزراء ، وقضينا الليلة فى ضيافته ثم زرنا الجمعية التشريعية فى اليوم التالى ، وتناولنا الشاى فى مضيق خيبر على حدود الافغان ، ثم غادرنا بشاور فى المساء عائدين الى دلهى ومنها الى بمباى ، حيث ركبنا الباخرة الى مصر ، فكان وداعنا هناك واستقبالنا هنا من أصدق الشواهد على مدى نجاح البعثة فى مهمتها



جميع هذه الانحاء . ولكنهم اسفوا وخاب رجاؤهم لان ضيق الوقت قد حال دون هذه الامنية . ومع قصر المدة التى قضاها أعضاء البعثة الوفدية فى الهند فانى لارجو ان يحملوا معهم عند عودتهم صورة - ولو غير كاملة - عن الهند اليوم وما فيها من حيوية ودوافع جديدة تحفزها الى الامام من كل ناحية ستكون لديهم فكرة عن حركتنا وكيف تقوم على جماهير الشعب، وكيف انها كحركة حية تعكس كالمرآة وجوه الصراع على المبادىء والمثل العليا وغيرها مما يشغل عقل الهند ، فبعد فترة طويلة من الحياة الكامنة الراكدة أومأت تلك القوى التاريخية المحركة الى شعبنا فأخذ يسير معها خطوة فأخرى أملا فى تحقيق الدور الذى قدره له التاريخ ، وهو التعاون الى اقصى الحدود مع جميع الشعوب التى تتعشق الحرية ، ولا سيما شعوب الشرق

انى أرجو ان يحمل أعضاء البعثة الى بلادهم أجمل الذكريات وأبقاها عن زيارتهم للهند . اما هم فانهم يتركون هنا أينما حلوا آيات خالدة للصداقة والتآخى بين الشعبين . وسنعتز طويلا بهذه الذكريات والايات . كذلك أرجو ان يكون فى استطاعتنا تبادل الزيارات فى أغلب الاحيان لكى تبقى الصلة متجددة على الدوام. وآمل بصفة خاصة ان يتمكن صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصرى من زيارتنا فى مستقبل الايام

وانى لاشعر برغبة قوية فى ان يوفد المؤتمر الوطنى مندوبين عنه لحضور مؤتمر الوفد الذى سيجتمع فى ابريل ، فاذا تيسر ذلك بحال من الاحوال فلا بد ان يوفد المندوبون ، ولكن من العسير ان نجزم بذلك نظراً للمشاكل الدولية والوطنيه الخطيرة التى تواجهنا الان .

وارجو من أعضاء البعثة ان يحملوا الى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا وهيئة الوفد والشعب المصرى ثقتنا التامة وايماننا بالاخاء والتضامن بين الشعبين لتحقيق المثل العليا التى جعلناها جميعا نصب أعيننا

الله أباد فى ٢٧ مارس سنة ١٩٣٩ **جواهر لال نهرو**

الهند مرة أخرى

بعد الاستقلال

بعد عشر سنوات

وتقدرون فتضحك الاقدار ..

لقد ضحكت مع الاقدار حين وجدت نفسي في اواخر فبراير من العام الماضي ١٩٤٩ – أتهيأ لرحلة اخرى الى الهند .. وفي شهر مارس نفسه ... أي بعد عشر سنوات كاملة من رحلتي الاولى اليها في شهر مارس سنة ١٩٣٩

لقد كنت قبل بضعة اسابيع أتهيأ لرحلة قصيرة الى ايطاليا ، فاضطررت حينذاك الى تجديد جواز السفر ، ولما طلب الى أن أسجل اسماء البلاد التي قد أزورها بمقتضى هذا الجواز أحصيت نحو عشرة بلاد على سبيل الاحتياط .. ولكن بلدا واحدا كان يتردد على خاطري فاستبعده على الفور من الاحصاء المطلوب لانني لم أكن أتصور ان أعود اليه بعد ان زرته مرة وحسبت انني بلغت من دراسة أحواله ومشاهدة اطرافه حدا يصرفني عن زيارته مرة اخرى ، وقضاء فترة من الوقت فيه انا أحوج الى قضائها في دراسة أحوال بلد سواه ...

وهكذا اغفلت الهند من قائمة البلاد التي سجلتها في جواز سفري المجدد ... فلم تنقض اسابيع معدودة على تجديده حتى وجدتني مدعوا مرة اخرى لزيارة الهند في رحلة صحفية دعت اليها حكومة الهند المستقلة ستة من الصحفيين المصريين . فاضطررت الى اجراءات جديدة استكمل بها ما تعمدت حذفه لانني قدرت ... وشاءت الاقدار غير ما قدرت .

كانت رحلتى الاولى كمـــا أسلفت رحلة سياسية . وكانت الثانية رحلة صحفية .

كانت الاولى بدعوة من حزب المؤتمر الوطنى الهندى الذى كان يخوض معركة الاستقلال والحرية ضد الاستعمار البريطانى . أما الثانية فكانت بدعوة من المؤتمر أيضا ... ولـكن بعد أن كسب معركة الحرية والاستقلال وتولى رجاله منصب الحـكم وحملوا أمانته ومضوا من فورهم قدما يخوضون معركة اشق واضـنى هى معركة الحكم الصالح لخير الملايين لا لمصلحة فرد واحد أو بضعة افراد ..

وكانت رحلتنا الاولى من طريق البحر عـلى باخـرة انجليزية ، قطعت بنـــا المسافة فى تسعة ايام .. بينما اتخـــذنا الجو مطيتنا فى الرحلة الثانيـــة على طائرة ضخمة هندية ، قطعت بنا المسافة بين القاهرة الى بمباى مرة واحـــدة فى تسع ساعات ونصف ساعة .

واذا كان السفر بالباخرة يتيح للمسافر متعة البحر الهادئة .. فان السفر بالطائرة يتيح للمرء أن يدرك المعجزة الهـائلة التى حققها الطيران فى العصر الحديث ، وهى معجزة سخرت بالمسافات ، وبالزمن وكادت تجعـل بساط سليمان حقيقة علمية واقعة ، لا تشبيهـــا مجازيا تجرى به الاقـــلام ، وتحار فى تصـوره الافهام !..



الهنـد الجديـدة

قال لى صديقى القديم ديجرلال ديساى وزير الهند فى سويسرا الذى شاءت المصادفة السعيدة أن ألقاه فى مطار فاروق ، وأفضى معه الرحلة الاخيرة فى الذهـاب والعودة . . . قال لى وهـو يذكرنى بزيارتى السـابقة التى نزلت فيها ضيفا عليـه وعلى والده فى بمباى :

ــ سيتاح لك هـذه المرة أن تقارن وأن تلمس ماطرأ على بلادنا من تطورات بعد عشر سنوات . قلت :

ــ هـذا حق . ولا شـك أن التغيير سيكون ظاهرا وملموسا .

فقال ــ وانك لتلمسه بالفعل الان، اذ تسافر على ظهر طائرة هندية ، يملكها هندى كبير ، هو المليونير المشهور تاتا ، ويقودها طيارون من الهنود ويشرف على راحة ركابها مضيفات هنـديات ولم يكن لهذا كله أثر عندما ذهبت الى الهند فى رحلتك الاولى ــ أى منذ عشر سنوات !

وهذا حق . . فما أبعد الفرق بين الهند التى رأيتها اذ ذاك وبين الهند التى رأيتها فى المرة الاخيرة بعد عشر سنوات . .

لقد كان يخيل الى أننى أزور هذه البلاد للمرة الاولى . . . حتى المكان الذى نزلنا فيه أخيرا بنيودلهى ،ويسمونه دار الدستور لم يكن له وجود فى مارس سنة ١٩٣٩

انه الآن دار الضيافة التى ينزل فيها أعضاء الجمعية التشريعية المركزية الـذين يمثلون مختلف الولايات الهندية . فترى أعضاء البرلمان الهندى رجالا ونساء معزوجاتهم أو أزواجهـن أحيـانا

ينزلون فى هذه الدار ويتناولون الطعام فى قاعتها الفسيحة حتى اذا انتهت أعمالهم البرلمانية عادوا الى ولاياتهم حتى تدعوهم واجباتهم مرة أخرى للعودة الى هذه الثكنات . . . التى كانت تسكنها القوات الامريكية أثناء الحرب !

وقد اختفت من الهند فى العامين الماضيين وصمتان لاشك أن الفضل الاول فى اختفائهما يرجع الى غاندى الذى وقف ماله وجهاده على محاربتهما بوسائله السلمية التى زلزلت الجبال .

الوصمة الاولى هى الاحتلال البريطانى ... والثانية هى وصمة المنبوذين !

أما الانجليز فقد اختفوا تماما من أعمال الادارة . فأصبح الوزراء جميعا من الهنود ، والوظائف الكبرى كلها بأيدى الهنود ، ولم يبق فى الهند المتحدة - عدا الباكستان - سوى مائتى موظف بريطانى لا حول لهم ولا قوة ينتظرون التصفية الحاسمة بعد فترة وجيزة ...

حتى العلاقة الواهية أو الشكلية التى تربط الهنود بالانجليز الآن ، باعتبارهم أعضاء فى (الكومنولث) أو مجموعة الشعوب البريطانية ، أعلن البانديت نهرو انها ستنفصم بعد بضعة أشهر ، وان الهند ستصبح جمهورية مستقلة لا صلة لها بانجلترا سوى الصلة العادية التى تربط بين الهند وسائر بلدان العالم وقد حضرت الليدى مونتباتن وكريمتها جلسة المجلس التشريعى التى أدلى فيها نهرو بهذا التصريح وهى قرينة اللورد مونتباتن ، ابن عم ملك الانجليز ، الذى تمت على يديه تصفية الامبراطورية ، تفاديا لكارثة اعظم كانت تهدد قوات الاحتلال فى الهند لو لم تبادر بريطانيا بنقل السلطة الى الهنود فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧

وقد قابلنا الليدى مونتباتن فى الهند وهى محبوبة جدا لدى الزعماء ولدى الشعب على السواء ولا تكاد تنزل فى نيودلهى الا فى ضيافة البانديت نهرو رئيس الوزراء . ومع ذلك فانه لم يجد بأسا من القاء تصريحه الخطير عن قطع علاقة الهند ببريطانيا

على مسمع منها ، بل انه أضاف الى ذلك ان الهند ترفض فى الوقت نفسه ان تربطها بأية دولة من الدول - بما فيها بريطانيا - أية محالفة من أى نوع كانت ، لان هذه المحالفات تحمل فى طياتها التزامات حربية وغير حربية ليس من مصلحة الهند ان تتقيد بها ! .

ولم يكد حزب المؤتمر يتولى مقاليد السلطة فى انحاء الهند منذ عام ونصف عام حتى استهل الحكم الوطنى بالغاء وصمة المنبوذين التى لم تكن تقل عاراوشنارا فى جبين الهند عن وصمة الاحتلال . بل هى تفوقه بكثير فان الاحتلال من عمل الاجنبى الغاصب ، بينما التعصب ضد طبقة من الامة كهذه تعد بالملايين عمل تقع مسئوليته كلها على أهل البلاد . وقد تحرر المنبوذون الآن تحررا كاملا من القيود الرهيبة التى ظلوا يرسفون فيها قرونا طويلة تحت نير التقاليد الهندوكية البالية . فلم يعد محرما عليهم ان يزاولوا عملا سوى الكنس ونقل القمامة ودفن الموتى ... ولم يعد محرما عليهم ان يأكلوا أو يشربوا مع غيرهم من طعام أو اناء واحد ... ولم يعد مفروضا عليهم اذا أرادوا ان يطلبوا الماء من احدى الآبار ان ينتظروا حتى يأتى أحد الهندوكيين غير المنبوذين فيملأ لهم الوعاء خوفا من ان يدنسوا البئر لو ملأوا هم منها ! !

لقد زال هذا كله الآن . وأصبح للمنبوذين من الحقوق وعليهم من الواجبات ما للجميع وعليهم . وقد تناولنا الشاى مع وزيرة الصحة فى دلهى وهى السيدة المثقفة راجكومارى (أى الآنسة) أمريت كور - وهى مسيحية قاربت الستين من عمرها - وكان بين الحاضرين عدد من كبار الهندوكيين وسيدة من طبقة المنبوذين جلسوا جميعا على مائدة واحدة بلا تمييز ولا أدنى تفريق

* * *

وهكذا فقدت الهند غاندى . . وتخلصت من الانجليز والمنبوذين ... أو بعبارة أخرى خسرت القائد وكسبت المعركة

صور وعبر ...

كان أمتع جزء فى برنامج رحلتنا للهند زياره كشمير التى لا نكاد نعرف عنها فى مصر الا انهابلد (الشال) الكشميرى الفاخر .. وهى اليوم مدار نزاع محتدم حول مصيرها الاخير . هل تنضم الى الباكستان ـ واغلبيه سكانهامن المسلمين ـ او تؤثر الانضمام الى الهند ، تمشيا مع التيار الوطنى الذى خاض غماره المسلمون منذ سنين تحت لواء حزب المؤتمر الهندى ، وعلى راس اولئك المسلمين الشيخ عبدالله رئيس وزراء كشمير الان ؟

لندع حديث السياسة مؤقتاوسنعود اليه فى مجال المقرنة بين مشكلتى حيدر اباد ذات الاغلبيةالهندوكية والحاكم المسلم وكشمير ذات الاغلبيه المسلمةوالحاكم الهندوكى .. وكم للاستعمار البريطانى فى الهند من فنون وشئون

كان الجليد يكسو ربى الجبال فى كشمير ويغرى بالنشاط والاقبال على مزاولة رياضةالشتاءالمحبوبة ـ رياضه الانزلاق التى قضينا فيها يوما من اجمل الايام . ومع ذلك فقد كنا قبل ايام معدودة نعانى ويلات الحر اللافح ئ كلكتا ونمسح العرق اللزج المتصبب من جباهناوايدينا فى مدراس ، ونهرب من الغرف المخصصة لنومنا فى (وردة) ـ معقل الحركة الوطنية وموطنها الاصيل ـ وستلقى على الاسرة فى فضاء مكشوف بين الغرف طول الليل ... وهكذايجمع جو الهند بين الحر القائظ والبرد القارس ، لتقلبه وسرعة انتقاله من حال الى حال ، بل لاتساع رقعة هذه البلاد التى تكاد مساحتها تعادل مساحة

اوربا كلها ، مع استثناء روسيا وحدها .

وكما يتفاوت جو الهند هذا التفاوت الواضح ، تتفاوت بين اهلها انواع الاديان واللغات والعادات تفاوتا لا مثيل له فى اى بلد اخر من بلاد العالم اجمع . ويدل الاحصاء الرسمى الذى اجرى سنة ١٩٤١ ، على ان تعدادها طبقا لاختلاف اديانها هو :

٢٣٩ر٤٢٤ر٤٠٠ هندوكى و ٧٤١ ر ٧٣١ ر ٤٢ مسلما و ٤١٩ ر ٢٩٢ ر ٥ مسيحيا و ٧٤١ر ١١٤ ر ٤ من السخ و ٣٢٥ر١١٠ بارسيا (من عبدة النار)

وقد زاد عدد المسلمين وغيرهم بعد ذلك التعداد زيادة كبيرة ، حتى اصبح عدد المسلمين فى الهند وحدها (اى بدون الباكستان) يقدر بنحو ٤٢ مليونا يواجهون الان مأزقا لامخرج لهم منه الا بالصبر والحكمة واستعادة الثقة التى زعزعتها حوادث التقسيم الفاجعة ومآسيه التى تعيد الى الاذهان اشنع الاهوال التى رواها التاريخ عن فاجعة الاندلس

وقد يكون مما يبعث بصيصا من الامل فى نجاة اولئك المسلمين من محنتهم ان عددا غير قليل من كبراء المسلمين يشغلون فى الهند اليوم عددا من ارفع مناصب الدولة . فهناك من الوزراء فى الحكومه المركزية بدلهى وزيران هما مولانا ابو الكلام آزاد وزير المعارف والسيد رفيع احمد قدواى وزير المواصلات ، وهناك اثنان اخران يتوليان منصب الحاكم العام فى ولايتين هنديتين وهما : السير اكبر حيدرى حاكم اسام والسيد عساف على أول سفير للهند فى أمريكا وشقيق السيد أصغر فيظى سفير الهند فى مصر الآن وهو الآن حاكم أوريسا ، ومن الوزراء المسلمين فى الولايات الهندية الآن مولانا عبد المطلب مازومدار ومولانا محمد طياب الله فى أسام ، والدكتور سيد محمود والسيد عبد القيوم انصارى فى بيهار ، ومن السفراء المسلمين للهند السيد أصغر فيظى فى مصر ، والسيد على

رهير فى ايران ، والسيد طيابجى فى بلجيكا ، والدكتور رؤوف فى بورما وميرزا رشيد على بك فى الهند الفرنسية ، والسيد عبد المجيد خان فى جدة والسيد فايز فى الفلبين . ومازال رئيس المحكمة العليا فى بمباى حتى الآن من المسلمين وهو السيد شاجلا

وعلى عاتق هؤلاء المسلمين البارزين يقع الآن أكبر نصيب فى المسئولية عن اخوانهم ومواطنيهم مسلمى الهند الذين تبينوا أن دولة الباكستان لاتستطيع أن تتسع لايوائهم ، وقد كادت تضيق بنيف وخمسين مليونا من المسلمين .

واذا كان المسلمون فى الهند متحدين فى الدين وان اختلفوا فى المذهب بين الشيعية والسنية ، فان الخلاف بين طبقات الهندوكيين أكبر وأضخم . وقد شرح لى أحدهم طبيعة الخلاف بين آلهتهم فقال انهم فى الحقيقة موحدون ، وانهم لايشركون بالله احدا ... ولكنهم يعبدون الله فى صور متعددة ! فهناك طائفة تسميه (براهما) أى الخالق ، وهناك طائفة تسميه (فشنو) أى الحافظ وهناك طائفة تسميه (شيفا) أى المهلك المدمر . ولهم فى تفسير هذا كله مذاهب متعددة ومعقدة .

وهناك بعد هذه الطبقات طبقة لمنبوذين أو الانجاس الذين وقف غاندى أعظم جانب من جهاده ونشاطه على انتشالهم من وهدة الاحتقار والمهانة ، فأمر بأن تفتح لهم معابد الهندوكيين ، وان يباح لهم مزاولة أى عمل يشاؤون جنبا الى جنب مع الهندوكيين والمسلمين والمسيحيين . وقد تم النصر لغاندى فى هذا السبيل ، وأصبح كثيرون من طبقة المنبوذين الملغاة يشغلون مناصب الوزارة وغيرها من مناصب الدولة كبيرها وصغيرها وفى مقدمتهم الدكتور امبيدكار وزير العدل فى الوزارة المركزية الآن ..

وقد أتيح لنا أثناء تجولنا فى الهند من دلهى الى كلكتا الى مدراس الى حيدرأباد الى كشمير أن نتحدث أحاديث صريحة الى اخواننا المسلمين . فلاحظنا عليهم حالة من القلق والتخوف لاشك فيها ، ولكنا وجدنا بينهم فى الوقت نفسه اجماعا على أن من حسن

حظ المسلمين والهنود جميعا ان على رأس الدولة رجلين عرف كلاهما بالجهاد السافر الصريح فى سبيل القضاء على الطائفية وهما راجا جوبالاتشارى حاكم الهند العام والبنديت جواهر لال نهرو رئيس الوزارة المركزية وخليفة غاندى فى زعامة الهند غير منازع، لاسيما بعد ان خلا امامه جو المنافسة على الزعامة بمصرع الزعيم الثائر شوباس تشاندرا بوز الذى الف جيشا هنديا وطنيا حارب به الانجليز مستعينا باليابانيين ، وتوغل أكثر من مائة ميل داخل الهند ، فلما وضعت الحرب أوزارها أراد الانجليز أن يلطخوا سمعة الرجل حتى بعد مماته فقبضوا على عدد من قواده ، وقدموهم للمحاكمة العسكرية بتهمة الخيانة الوطنية فى سنة ١٩٤٦ ، وشاء حسن الطالع ان يكون أول فوج قدم للمحاكمة مؤلفا من ثلاثة من قواد الجيش الوطنى أحدهم مسلم — وقد قابلته فى دلهى وتحدثت اليه حديثا كشف فيه عن كثير من الاسرار — والاخر هندوكى ، والثالث من السيخ ، وهنا برزت عظمة زعماء الهند ورجولتهم على أتمها حين الفوا هيئة للدفاع على رأسها المحامى الاشهر والسياسى الفحل بولاباى ديساى — وقد توفى منذ عام — وكان من أعضائها البانديت نهرو الذى نسى خصومته السياسية لشوباس بوز واسرع الى رداء المحاماة ينفض عنه غبار ثلاثين سنة ، ولم يكتف بذلك ، بل راح يطوف انحاء الهند ويخطب فى الجماهير الحاشدة اينما ذهب منوها بوطنية بوز ، مشيدا بجهاده الدائم فى سبيل تحرير الهند ، مؤكدا أنه لم يكن هو ولا قواده خونة أو خارجين على الوطن ، بل كانوا يكافحون للوطن بكل سلاح يجدونه ، ولهذا حاربوا فى صفوف اليابانيين لا حبا فيهم ، ولكن أملا فى الخلاص من شر الاستعمار البريطانى !

لقد بذل الانجليز كل ما أوتوا من مكر ودهاء حتى أثاروا بين الهندوكيين والمسلمين شعور العداء والكراهية ، برغم صلات الالفة والاحترام والتعاطف التى طالما جمعت بينهم ، وهى صلات لا أستطيع أن أذكر رمزا لها أنبل من ذلك المعبد الهندوكى الذى يلتصق جداره بجدار مسجد ومقام يتبرك به المسلمون



الراقص الهندى المشهور « رام جوبال » الذى طاف انحاء العالم ونال نجاحا باهرا فى عرض رقصاته ، ويرى هنا مع الراقصة المشهورة شيفانتى »
فى رقصة شعبيـــة

والهندوكيون جميعا لولية معروفة فى بلدة تبعد نحو مائتى ميل جنوبى مدينة مدراس ، وقد جرى الهندوكيون فى ذلك المعبد على تفادى عزف الموسيقى لصلاتهم فى أوقات الصلاة عند اخوانهم المسلمين !

وقد تصدى غاندى للسياسة الاستعمارية فى حربها ضد وحدة الهند ، فكان حريصا على توكيد معنى التسامح الدينى فى كل خطوة يخطوها وكل صلاة يقيمها فكان كل صاحب دين يؤدى فرائض دينه فى صومعة غاندى على مسمع وعلى مشهد من الحاضرين على اختلاف أديانهم ، ومازال اتباع غاندى يقيمون الصلاة فى صومعته بمدينة ورده كما كانت تقام فى حياته ، وقد حضرنا هذه الصلاة ليلتين متواليتين احداهما فى اصلاحية النساء التى كان يبيت فيها اثناء صيامه ، وقد تلوت فيها سورة الفاتحة وسورة الاخلاص بدعوة من كبار الهندوكيين الموجودين ، وفى الصلاة الثانية دعينا أيضا للاشتراك مع جمهور المصلين الذين جلسوا فى مستطيل كبير أمام كوخ غاندى البسيط الذى مازال باقيا كما تركه حتى الان ، وقد لفت نظرى حين بدأت الصلاة فى غسق الليل ان احدهم أمسك بطبل أو على الاصح رق (بلا جلاجل) ثم رفعه واخذ يدق عليه دقات بطيئة رتيبة رهيبة ويتلو معها كلاما لم أتبينه ، ثم تلا الرجل نفسه - وهو هندوكى - سورتى الفاتحة والاخلاص مع التجويد المؤثر دون ان يخطىء فى لفظ أو حركة واحدة ! ثم تليت الصلاة الهندوكية المعتادة ، وحضرت للاشتراك فى الترنيم بصفة خاصة فى تلك الليلة سابلا كشمى (ام كلثوم الهند) ، وهى فتاة ناضرة الشباب ، ذهبية الحنجرة ، جمعت ثروة ضخمة من الغناء ، واصبحت تطوف الان لتقيم حفلات تتبرع بثلاثة ارباع ايرادها لاعمال الخير . وقد اختتمت اناشيدها الدينية فى تلك الليلة بترتيل اسم الله أى (رام) بالهندوكية على تصفيق الاكف وترديد الحاضرين رجالا ونساء « رام ، رام ، رام رام »

وبعد انتهاء الصلاة روى لى أحد الذين حضروا الصلاة قصة

الطبلة والنشيد الذى افتتحت به الصلاة ، فقال ان راهبا يابانيا كان قد انضم الى صومعة غاندى قبل الحرب ، وظل يواظب على الصلاة ويشترك فيها بالطبلة والنشيد الدينى الذى سمعناه . فلما نشبت الحرب اعتقل الانجليز الراهب اليابانى العجوز أسوة بجميع اليابانيين الذين كانوا يقيمون فى الهند اذ ذاك . فأمر غاندى بأن تعتبر صلاة الراهب اليابانى جزءا من صلاة مريديه كل يوم كما لو كان صاحبها موجودا ، وكما كان يؤديها بنفسه .. ومازال طبل الراهب ونشيده من ذلك اليوم جزءا لا يتجزأ من الصلاة أمام صومعة غاندى تنفيذا لامره وتمشيا مع حرصه على احترام جميع الاديان . وقد دخلت الصومعة فى النهار فوجدت على الحائط سورة الفاتحة مكتوبة باللغة العربية ومعلقة فى أبرز مكان .

أما كفاح غاندى — أو بعبارة اخرى كفاح الهند اليوم — فى سبيل انتشال الشعب من وهدة لفقر والجهل والمرض . فيتمثل فى انظام التعاونى الاجتماعى الذى يسود (سيفاجرام) غاندى فى مدينة (وردة) . و(سيفاجرام) كلمة مركبة تعنى « مركز الخدمة » . وقد زرنا هذا المركز الذى اختار غاندى لاقامته هذه البلدة الصغيرة بالذات لانها تقع فى منتصف الهند وتتوسط قلبها تماما ، وخلاصة النظام النموذجى الذى وضعه غاندى وما زال متبعا فى هذا المركز ، وفى نحو ٤٠٠ مركز غيره حتى الآن ، هو أن يتعاون أهل كل قرية فيما بينهم تعاونا شاملا كاملا ، على كفاية أنفسهم بأنفسهم . فيزرعون أرضهم ، ويحصدون محصولهم ، وينسجون ملابسهم ، ويحضرون ماءهم ، ويعدون خبزهم ، وينتجون كل مايحتاجون اليه من الزيت والصابون ومنتجات اللبن ، وغير ذلك بحيث لايبقى احد فى المجتمع بلا عمل ، ولا نصيب فى ثمرة العمل . . كل هذا على شرطين أساسيين : أولهما أن يكون الاساس الذى يسود هذا المجتمع هو التعاون دون التجاء الى العنف بحال من الاحوال . والثانى أن لايكون فى هذا التعاون نصيب للآلات عدا

البسيطة الساذجة التى يديرها العامل بيده أو قدمه ! فلا آلات كهربائية ولا طلمبات ، ولا نحوهامن الآلات الميكانيكية التى تؤدى الى البطالةوأن أكثرت من الانتاج !

هـــذه خلاصـــة النظـرية الاقتصـــادية والاجتماعيـــة التى يطبقها الآن فى ورده وفى غيرها عدد من فطاحل رجال الاقتصـــاد والاجتماع الهنود بملابسهم البسيطة وأقدامهم الحافيه فى قرى الهند النائية ، فلا يكاد الذى يراهم لاول وهلة يصدق أنهم خريجو جامعات كمردج واكسفورد وأبناءترف ونعيم قديم ...

والمرأة الهنـــدية تقوم الى جانب الرجل بنصيب كبير من الجهد ، وهى تتمتع بحقوقهـــا السياسية وقـــد كانت احـــدى نساء الهندتتولى منصب الحاكمة العـــامة لاقليم (المـــديريات المتحدة) وهى الشاعرة العالمية ساروجينى نايدو ، وتتولى اليوم وزارة الصحة فى الحكومة المركزية امرأة فاضلة هى السيدة أمريت كاور وهى مســـيحية كانت سكرتيرة غاندى سنوات طويلة وظلت فى خدمته حتى قتـــل . وهنـــاك امرأة تشغل منصب السفيرة ، وهى السيدة لاكشمى بانديت شقيقة نهرو التى اسندت اليها سفارة الهنـــد فى وشنطن أخيرا . وهنـــاك عدد غير قليل من النســـاء يشغلن مناصب النيـــابة فى جميع المجـــالس التشريعية بالهند .

ومع ذلك فان التقاليد لاتزال تقف دون اختلاط الجنسين حتى فى التعليم الجامعى بالهند . وقد كان من اغرب المشـــاهد التى رأيتهـــا عنـــدما زرت بعض الجامعات الهندية ان للطالبـــات مدخلا خاصا فى قاعات المحاضرات، يدخلن منه الى مقاعد مرتفعـــة عن مقاعد الطلبة ، ومحجوبة عن بقية المقاعد بستار من القماش يظهر ان يد التحرر تعمل فيـــه عملها كل يوم فـــلا يكاد يحجب شيئا على الاطلاق !

وهناك الان تشريع يجتـــاز مراحله النهائية يسمى « القانون الهندوكى » وهو يتضمن نصوصا تتعلـــق بالاحـــوال الشـــخصية للطائفة الهندوكية ، وبمقتضاه يبـــاح الطلاق عنـــدما تحتمه

الضرورة - وهو محظور حتى الان فى جميع الاحوال - ويباح كذلك للمراة حق الارث ، وهى محرومة منه الان كل الحرمان !

ويميل الهنود على وجه عام الى الاحتفاظ بتقاليدهم فى الملبس والمأكل والعادات . ولهذا تحتفظ المراة الهندية اينما ذهبت داخل بلادها او خارجها (بالسارى) وهو اشبه (بالملاية) مع زخرفة تتعدد حسب تعدد الأجواء والاذواق والمقدرة على الشراء . وكذلك يحرص الرجال على ايثار الزى الوطنى البسيط ، حتى ان بعضهم ليحس بالخجل اذا اضطر الى ارتداء الملابس الافرنجية .

وكذلك حالهم فيما يتعلق بالطعام . فهم - على اختلاف طبقاتهم - يجلسون ارضا على حصير او سماط ممدود ، وتوضع امام كل منهم « طبليه » مربعة من الخشب ، ثم توضع صينية من النحاس او ورقة مغسولة من اوراق الموز ، فوق (الطبلية) ، ويجلس الرجال فى جانب والنساء فى جانب اخر . ويطوف الخدم على التوالى بالطواجن والاوانى يوزعون على الحاضرين ما يحملون من الملح والسلطة و « الطبيخ » والارز واللحم - اذا لم يكونوا نباتيين - والشطة والحلوى وهم يتناولون هذا كله بايديهم فى براعة فائقة . وقلما يضطرون الى استعمال الملعقة الصغيرة التى توضع امامهم الا فى حالات قليلة فاذا انتهوا من طعامهم قدمت اليهم لفافات صغيرة من التوابل يسمونها (بان)

وبعد ، فهذه لمحة سريعة عن الهند اليوم كما شاهدتها ، ولا أحب أن أختمها دون الاشارة فى اسف الى ان معلومات الغالبية الساحقة من اهل الهند عن مصر تافهة ان لم تكن معدومة ، والمثقفون منهم يتتبعون باشد الاهتمام اخبار جلالة الملك ، ويستزيدون منها ، ويعرفون سعد زغلول والوفد ومصطفى النحاس ، ويجهلون الحالة الداخلية فى مصر سياسيا واجتماعيا جهلا مطبقا . والجامعات الاسلامية كجامعة عليكرة والجامعة العثمانية فى حيدر أباد لا تكاد تدرس شيئا عن الحركة الوطنية الحديثة فى مصر ، وان كانت مكتباتها تضم كتبا

معدودة على الاصابع لطه حسين واحمـد امين وحســن ابراهيم حسن واحمد حسن الزيات .

وقد كان السؤال الذى لقى على فى كـل مكان اكثـر من اى سؤال آخر هو : هل الفرنسية عندكم اكثر شيوعا من الانجليزيه .. وقد سمعت هذا السؤال من نظام حيدر اباد وحاكم البنغال الغربيـة ومن الصحفيين وطلاب الجامعات وكان بعضهم يسأل عما اذا كـانت صحفنا تصـدر باللغة العربية أم باللغة المصرية!

وفى متحف مدينة حيدر اباد وجدت بين المعروضات صندوقا زجاجيا به مومياء مصرية ظهرت بعض اصابع قدميها بحالة تامة ولم أجد على الصنـــدوق كلمة واحدة تتضمن شيئا عن أصل هذه المومياء او فصلها .. ولمـا سألت (البروفسور) الذى كان يرافقنا قال انه لا يدرى ، ولكن يبدو ان احد الكبراء اشتراها من مصر وجلبها الى حيدر اباد قبل ان تتخذ الحـكومة المصريـة الاجـراءات اللازمه لمنـع تسرب الاثار

ومع ذلك فهناك شوق شديد لتعرف اخبـار مصر واحوال مصر وتوثيق علاقة التعاون والمودة بين الهند ومصر .



زهرتان و شوكتان

حيدر آباد وكشمير

هما زهرتان من أنضر ، واعطر ، الازهار فى بستان الهند ..
وهما أيضا - ويالسخرية القدر - شوكتان من اخطر الاشواك التى تدمى جنبى الهند !

ان أعمدة الصحف فى الهند والعالم أجمع مازالت حتى اليوم تفيض بالانباء المغرضة والبريئة ، كما تفيض بالتكهنات عن مصير البلدين . وان كانت كل الدلائل تشير الى أن مصيرهما ، أو على الاقل مصير حيدر اباد قد تقرر بالفعل ..

لقد زرت البلدين ، ونزلت فى عاصمتيهما أياما ، ونعمت - مع زملائى الصحفيين - بأمتع واجمل فترة من فترات الهدوء والراحة فى دار الضيافة الفاخرة بكلا العاصمتين .. ومع ذلك فان جوا رهيبا من القلق والانتظار كان يختلط بجو الربيع الفاتن هنا وهناك ، رغم البعد الشاسع بين حيدر اباد الدكن التى يسمونها « بطن الهند » وبين وادى كشمير الجميل فى أقصى الشمال ..

وان وجوه الشبه لتتعدد بين البلدين على نحو يثير العجب .
فكلاهما يتمتع بشهرة عالمية : كشمير باصوافها وحيدر اباد (بنظامها) ..

وكلاهما يثير مشكلة عالمية .. وكلاهما يعانى من حاكمه المستبد : ففى كشمير تعانى الاغلبية المسلمة أشد الويلات من المهراجا الهندوكى المستبد .. وفى حيدر اباد تعانى الاغلبية الهندوكية أشد الويلات من الحاكم المسلم المستبد الذى يحمل لقب (النظام) ..

ومع اختلاف دين الاغلبية فى كل من حيدر اباد وكشمير ، فان الBانديت نهرو زعيم الهندوريس حكومتها قد انتصر للاغلبية وايد زعماءها بالقوة المسلحة فى الحالتين .. فغزا حيدر اباد وارغم النظام على الاستسلام ، وارسل قواته لنجدة الشيخ محمد عبدالله وردالقبائل الغازية عن كشمير ...

وكلاهما اخيرا وليس اخرا ، يسير الان فى طريق الاصلاح الاجتماعى ومحاربة خطر الشيوعية بخطوات سريعة حاسمة .



حيدر آباد

وحيــدر اباد ، الولاية التى‌تسمى عاصـــمتها بهذا الاسم ايضا ، هى الشطر الشرقى من‌شبه جزيرةالدكن . ومساحتها ٨٢٫٦٩٨ ميلا مربعا ، اى انهــاتزيد على مســاحــــة انجلترا واسكتلنده معا . ويبلغ مجموع‌سكانها ، طبقا لاخر احصائيـــة رسمية اجريت فى سنة ١٩٤١ ، ١٦٫٢٠٠٫٠٠٠ نســمـــــة منهم ٧٢٨٫٠٠٠ يسكنون مدينة حيدراباد ، التى تعد رابعة مدن الهند من حيث ضخامتها .

وقـــد كان النظام الاقطاعى‌سائدا فى حيدر اباد الى أن وقع الصدام التاريخى فى سنة ١٩٤٨بينها وبين حكومة الهند الوطنية فى دلهى على‌النحو الذى‌سنوجزه‌فيما بعد .

وامير حيـــدر اباد ، المشهوربالنظام ، يحمل‌الالقاب التالية ، منذ ســنة ١٩١١ « صــاحب‌السموالاسمى ، رستم‌الوردان ، ارشد الزمان، الاميرالاى مظفر الملك والمماليك ، خان ميرســير عثمان على خان بهادور ، الفاتح‌الظافر ، الحليف الوفى للحكومة البريطانية ، نظام الدولة ، نظام‌الملك ، آصــــف شـــاه ، نظام حيدر اباد وبيرار » !!

وهو سابع نظام لحيدر اباد ،وبدعى ان اباه من نســــل أمير المؤمنين سيدنا ابى بكر رضى‌الله‌عنه ، وان امه من نسل رسول الله سيدنا محمد عليه الصلاةوالسلام .

ورأس أسرته ومؤسسها هوقلج خــان ، اول نظام للملك ، وتختلف الروايات فى‌شأن‌الاساس‌الذى قامت عليه هذه الدولة ، فالذين فى صف النظام يقولون‌بانها اسست فى ســـنة ١٧٢٤ ،

حين ثار مؤسسها على حكم السادة فى دلهى ، وشق طريقه الى الجنوب ، وانزل الهزائم بالجيوش التى ارسلها الامبراطور من دلهى لتقطع عليه الطريق ، والتقى بها فى موقعة حاسمة بمقاطعة بيرار ، فلما استقر له الامر انعم عليه امبراطور دلهى بلقب نائب الملك واعترف به . وقد مات قلج خان سنة ١٧٤٨ فى سن الرابعة بعد المائة .

أما خصوم النظام فيقولون ان دولة حيدر اباد نزعت نزعا من مدراس وبمباى والاقاليم الوسطى لكى تكون هدية من الانجليز الى النظام الاول مكافأة له على خيانة ارتكبها لمصلحتهم ضد الفرنسيين الذين حاولوا منازعتهم النفوذ فى بعض انحاء الهند .

وقد ولد النظام الحالى فى سنة ١٨٨٦ ، أى أنه الان فى الرابعة والستين من عمره ، ومع ذلك فقد بدا لنا حين قابلناه فى قصره أكبر من ذلك بكثير ، اذ كان الهزال باديا عليه ، والتجاعيد تملا وجهه ، ويداه ترتعشان بدون انقطاع ، وقيل ان سبب ذلك ادمانه بعض المكيفات .

وقد خلف عثمان على خان اباه محبت على خان بعد وفاته فى سنة ١٩١١ ، وكان قد تزوج فى سنة ١٩٠٦ ، أى فى العشرين من عمره ، زوجته الاولى دولهان باشا ، وانجب منها فى سنة ١٩٠٧ ، ولى عهده الامير همت على خان (عزام شاه) الذى يلقب الان بأمير بيرار ، وهو متزوج من الاميرة دره شاه كريمة السلطان عبد المجيد اخر سلاطين آل عثمان . والامير معظم شاه (شجاعت على خان) وقد تزوج من الاميرة نيلوفار التركية .

وتقدر ثروة النظام بمبلغ يتراوح بين ٤٠٠ و ٨٠٠ مليون جنيه ، وهى اكبر ثروة لاى حاكم فى العالم ، وله قصور فخمة فى دلهى وبمباى وبونا ولكنه قلما ينزل فيها .

وهو مشهور بتقتيره كما هو مشهور بثروته .

وقد كنت ـ ومازلت ـ أترددفى تصديقمايروىعن بخله،ولكن رصيد التردد عندى هبط كثيراعندما قابلت النظام فى قصره بعد عشر سنوات من سماع هذهالقصة . فان ملابس الرجل كانت من اردأ انواع القماش ، وكان طربوشه رثا باليا تشمئز لمنظره النفوس . وجوربه متدليالا يمسكه شيء حول ساقيه النحيلتين ، وحذاؤه مركوبا منارخص الانواع التى تعرض على الارصفة ويطوف بها الباعةالمتجولون ، ولم يكن يزينأصابعه او صدره بأى أنواع الزينة

ومع ذلك فان من مقتضيات الانصاف ان اذكر ان كثيرين من انصار الرجل ينسبون ذلك الىتقشف طبيعى فيه ، والى شدة كراهيته للتجمل والترف ، وهميدللون على ذلك بواقعة مشهورة خلاصتها ان أحد كبار العلماءالمسلمين فى شمال الهند التمس مقابلة النظام وسافر الى حيدراباد خصيصا من أجل هذه المقابلة ، فى الموعد الذى حددلها،ولما وصل العالم الكبير الشهير ادخل الى قاعة الاستقبال فىانتظار دعوته للتشرف بالمقابلة ويظهر ان من عادة النظام انيسترق النظر من خلف الاستار ليرى ملامح زائره قبل مقابلته. فلما لمح صاحبنا وجده قد حضر فىأبهى زينته وأفخر ملابسه . . .

وعاد الشيخ (المطمطم) دونان يتشرف بمقابلة النظام الذى هاله ان يحفل رجل الدينبمظاهرالترف والابهة الى هذا الحد ! !

ويستيقظ النظام عادة فىالساعة السادسة من صباح كل يوم ، فيؤدى الصلاة ، ثميطالع الصحف ، ويعكف على البت فى شئون الدولة بنفسهمن الساعة العاشرة الى الرابعة بعد الظهر . وعند مغرب كل يوميذهب الى قبر أمه ليقرأ الفاتحة على روحها . وقد خلد ذكراهابتخصيص ۲۰۰ ألف روبية فى العام لاعانة فقراء التلاميذوالتلميذات من جميع الطوائف على اتمام دراستهم

ويجب ان يسجل الباحثالمنصف ان من مفاخر نظام حيدر اباد عنايته بنشر التعليمعناية بلغت ذروتها حين خرجت



صاحب السمو الاسمى ، رستم الوردان ، أرشد الزمان
الاميرالاى مظفرالملك والمماليك ، آصف‌شاه ، نظام حيدرآباد وبيرار

الجامعة العثمانية فى حيدر ابادالى حيز الوجود . وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى سموه ،اذ انه أصدر فرمانا (هكذا يسمى مراسيمه تشبها بسلاطين تركيا . .) بانشائها فى ٢٦ ابريل سنة ١٩١٧ ، وقد افتتح سموه كلية الآداب فى سنة ١٩٣٧ ، ومنح سموه أعلى درجاتها الفخرية وهى درجة « سلطان العلوم » !

وقد زرت الجامعة العثمانية زيارة سريعة . وطفت بقاعات المحاضرات فى كلية الاداب ، وتفقدت مكتبتها ، فوجدتها من الداخل صورة تكاد تكون طبق الاصل من كلية الاداب فى جامعة فؤاد الاول ، مع فارق اللغة بالطبع ، وان كانت اللغة الاوربية تكتب بالحروف العربية ، وتحمل نسبة ضخمة من الالفاظ العربية

ومن أغرب مالفت نظرى فى قاعات المحاضرات ان جانبا من المقاعد فى أقصى القاعة ، يرتفع عن بقية المقاعد ، ويفصله عنها ستار لايمنع الانصات للدروس ولكنه يمنع الطالبات من النظر الى الطلبة والعكس بالعكس . . . ولكن الطالبات تحالفن مع الزمن فى هلهلة الستار وتمزيقه وتخريقه ، حتى أصبح عاجزا عن اداء وظيفته كل العجز !

ولاحظت كذلك ان كليات الجامعة العثمانية ليست مبعثرة فى أطراف المدينة كما هى الحال فى جامعة فؤاد الاول مثلا ، ولكنها تقوم فى خارج المدينة وسط فضاء متسع ، يكفل وجود الكليات فى مكان واحد كما يكفل افساح المجال للتوسع فى أبنيتها وزيادة مساكن الطلبة والطالبات فى المستقبل .

على ان الميزة الكبرى للجامعة - من الناحية الشكلية هى الطراز الهندسى الذى بنيت عليه . وهو الذى يسمونه هناك بالطراز العثمانى - نسبة الى النظام الاسلامى والفن الهندوكى الوثنى فى البناء وقد وضع هذا الطراز رجل من اعظم مهندسى حيدر آباد والهند كلها وقد انتخب سنة ١٩٤٥ رئيسا لمعهد المهندسين (فى جميع انحاء الهند) وهو سيد زين الدين حسين خان الذى يعرف رسميا باسم نواب زين جنج بهادور ، وهو الآن وزير الاشغال والعمل والشئون الصحية والطبية والبلدية فى

حكومة حيدر آباد المؤقتة (وهى الحكومة التى اقامتها الهند بعد فتح حيدر آباد سنة ١٩٤٨) ، وقد كان الوزير الوحيد الذى حضر معنا مقابلة النظام مع الجنرال تشودرى الحاكم العسكرى العام .

وقد أتيح لى أن اجتمع بهذا الوزير المهندس العظيم عدة مرات ، كما تصادف سفره معنا بالطائرة من حيدر آباد الى دلهى فجلسنا نتحدث طويلا حول مسائل سياسية واجتماعية وثقافية شتى ، فوجدته يعرف مصر ويعرف عددا من كبار مهندسيها ، وقد ابدى لى شديد اسفه لعدم اهتمام مصر بابتداع طراز هندسى حديث ، على غرار الطراز العثمانى ، يجمع بين الطرازين الفرعونى والعربى ، ويتخذ طابعا للمنشآت القومية الكبرى فى مصر ، كجامعة فؤاد الاول التى ادهشه حين زارها ان يجدها مبنية على طراز لا يمت الى الفرعونيين أو العرب بسبب

ونعود الى الحديث عن نظام حيدر آباد ، فنقول — انصافا له ايضا — انه لم يدخر وسعا فى توكيد روح التسامح التى ينظر بها ، ويعامل بها رعاياه من مختلف الاديان والعقائد ، وثمانون فى المائة منهم او يزيدون من الهندوكيين ، ومن ذلك قوله فى عبارات مؤثرة تنم عن اخلاص وصدق بروح اسلامية صحيحة :

« مهما يكن دين بيتنا المالك ، ومهما تكن معتقداتى الشخصية ، فاننى ، كحاكم اعتبر نفسى من اتباع دين اخر كذلك قوامه (المحبة نحو الجميع) . وذلك لان تحت حكمى اناسا من مختلف المذاهب ، والطوائف ، وقد كانت حماية دور عبادتهم من زمن طويل جزءا لا يتجزأ من دستور دولتى »

وذهب النظام الى أبعد من ذلك فقال فى بيان رسمى :

« اننى بوصفى حاكما ، اعتبر نفسى بلا دين ، لا بمعنى اننى ملحد ، ولكن بمعنى اننى كحاكم لا أتحيز لمصلحة أو ضد مصلحة دين بعينه او طائفة دينية بعينها ، وقد كانت هذه الخطة وستظل من دواعى الفخر لى ولاسلافى ، وادعو الله ان ينهج خلفى مثل هذه الخطة نفسها »

ورغم كل ما قرأت ، وسمعت،عما للنظام وما عليه ، فانني لا استطيع ان اشك فى صدق ايمانه بسلامة هذه الخطة واستقامتها . ولهذا لم ادهش حين علمت ان تسعين في المائة من الحراس والخدم المعينين فى القرى لخدمة المساجد والمعابد معا هم من الهندوكيين .. وان هناك على الاقل ١٢٥ مسجدا وضريحا يديرها ويعنى بخدمتها هندوكيون يتقاضون فى سبيل ذلك مكافآت من الحكومة ، كما تنفق الحكومة مرتبات وتخصص مبالغ طائلة من التبرعات والاوقاف وغيرها لصيانة المعابد واكتشاف الآثار الهندوكية وصيانتها ويوجد منها فى ولاية حيدر آباد نحو ٣٢ الف معبد للهندوكيين و ٦ الاف مسجد للمسلمين .

ومع ذلك فان سوء الادارة فى ظل الحكم الاستبدادى ، ادى الى اختلال خطير فى التوازن بين نسبة الهندكيين الى المسلمين فى وظائف الحكومة ، حتى اصبحت نسبة المسلمين فى وظائف الدولة نحو تسعين فى المائة ، .. مع ان نسبتهم بين مجموع السكان لا تتجاوز ١٢ او ١٥ فى المائة :

والحق ان عيوب النظام تكاد تلخص فى ناحيتين :

الاولى — ولاؤه الاعمى للاستعمار البريطانى ، ومجاهرته بل مفاخرته بهذا الولاء ..

والثانية — اصراره على التمسك باهداب الحكم المطلق الاتوقراطى ، والاقطاعى ، فى القرن العشرين !

اما ولاؤه للاستعمار البريطانى فاشهر من ان يذكر . وقد استحق من اجله ان يتلقى من الملك جورج الخامس خطابا مؤرخا فى ٢٤ يناير سنة ١٩١٨ ، كتبه الملك جورج فى قصر بكنجهام رقال فيه :

« انه لمن اكبر دواعى ارتياحى ان اعلن عن تقديرى للخدمات العظيمة التى قدمتها الامبراطوريتى خلال الحرب ، وذلك بمنحك لقبا خاصا هو (صاحب السمو الاسمى) ، وتثبيت لقبكم الفخرى رسميا وهو لقب (الحليف الامين

للحكومة البريطانية) الذى اكدتم به يا صاحب السمو الاسمى ، انتم واسلافكم ، ولاءكم لاسلافى ولى » ! !

وقد انعم بلقب « الحليف الامين » على احد جدود النظام الحالى تقديرا لولائه وتفانيه فى خدمة الاستعمار البريطانى فى الهند نفسها .. ويروى عن ذلك النظام انه دعا اليه ولى عهده ساعة احتضاره ، وهمس اليه بوصيته الاخيرة ، وكان أهم بند فيها الا ينحرف قيد شعره عن ولائه للحكومة البريطانية ! !

ويذكر تاريخ العائلة الآصفيه ، وهو لقب عائلة النظام ، ان جيوشها حاربت على الدوام فى جانب الجيوش البريطانية صد كل عصيان او ثورة قامت فى الهند ضد الاستعمار البريطانى ، بما فيها الثورة الهندية المسلحة الكبرى ، فى اواخر القرن الماضى ، وهى الثورة التى يسميها الانجليز بالتمرد الاكبر .. وقد كادت تقضى على الحكم البريطانى فى الهند قضاء مبرما ، حتى لقد ابرق حاكم بومباى البريطانى الى المقيم البريطانى لدى بلاط النظام يومئذ يقول له : « اذا ذهب النظام ، ضاع كل شىء » ! !

ويذكر التاريخ القريب أن والد النظام الحالى كان أسبق أمراء الهند الى تقديم خدماته الشخصية وتسخير موارد دولته لمساعدة الجيش البريطانى على قمع المسلمين الثائرين فى منطقة الحدود الشمالية الغربية ، كما يذكر التاريخ أن ذلك النظام نفسه كان أول من أنشأ (الفرقة الامبراطورية الخاصة) للدفاع عن الامبراطورية البريطانية »

أما النظام الحالى فلم يكن أقل تحمسا للامبراطورية البريطانيه من أسلافه ، ولعله بزهم جميعا .. وهو شديد الفخر والاعتزاز بولائه للامبراطورية ، ولهذا لا يدع مناسبة دون التنويه به ، وقد قال فى ذلك ذات مرة :

« لقد حدث فى اكثر من أزمة واحدة أن شهر ملوك العائلة الآصفية سيوفهم دفاعا عن شرف الامبراطورية البريطانية وسلامتها » !

ولما قامت الحرب العالمية الاولى وضع النظام جيوشه وموارده تحت

تصرف بريطانيا ، واستغل اسمه ومكانته كمسلم ينتسب الى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصدر نداء الى المسلمين فى الهند وغيرها يدعوهم لمحاربة جيوش الخليفة العثمانى ...

ولما قامت الحرب العالمية الثانية فى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ سارع النظام الى اذاعة نداء تاريخه ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٩ جاء فيه بالحرف الواحد :

« لقد أبلغت نائب الملك أنه كما هرع أسلافى لنجدة الحكومة البريطانية خلال الازمات الماضية وكما حاولت أن أقدم كل خدمة بكل وسيلة أستطيعها خلال الحرب السابقة فى سنة ١٩١٤ ، فاننى على استعداد لتكرار ذلك بالطريقة نفسها ، وأننى أرى ذلك واجبا على حتى يظل المعنى الحقيقى للقب « الحليف الامين » الذى منحته الحكومة البريطانية لبيتى المالك قائما أمام أعين العالم »)

واستطرد النظام فطلب من المسلمين فى أنحاء الهند كلها أن ينسوا خلافاتهم الكبيرة والصغيرة جميعا ويركزوا جهودهم فى مساعدة بريطانيا ... حتى يزول كل خطر على الامبراطورية البريطانية، ثم يقول :

« فاننى لا أتردد قط فى أن أقول ان ظل الحكومة البريطانية الوارف الظليل الذى تعيش تحته الهند منذ أمد طويل ، انما هو نعمة لهذه البلاد ليس لها مثيل، وذلك ما لا يستطيع أحد أن ينكره الخ الخ » !

وقد خطب النظام فى المأدبة الرسمية التى أقيمت تكريما لنائب الملك فى الهند فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٤ فذكر بالفخر مساهمته الشخصية ومساهمه بلاده فى نفقات الحرب العالمية الثانية فقال :

« ان مساهمتى الشخصية بلغت ٦٠ الف جنيه لاعداد سرب من الطائرات المقاتلة و ٧٠٠ر٠٠٠ روبية تبرعا فى الاكتتاب الذى افتتحه الحاكم العام لاغراض الحرب ، وبلغت قيمة المصروفات والنفقات المباشرة وغير المباشرة التى قدمتها حكومتى نحو ٦٣ر١١٠ر٠٠٠ روبية أى نحو خمسة ملايين من الجنيهات

« وكذلك تبرعت حكومتي بنحو ٢٥٠٠٠٠ر٥ روبية لوزارة الطيران البريطانية والاميرالية البريطانية

« وساهمت حيدر ابادفي محاربة التضخم النقدى .... ويسرنى ان أقول ان حكومتى قد استطاعت حتى الآن أن تكتتب بأكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ روبية فى قرض الدفاع وغيره من قروض الحكومة الهندية »

ومن الغريب أن الرجل الذى يغدق هذا المال من خزائنه ومن خزائن حكومته لخدمة أغراض الاستعمار البريطانى باعتباره « الحليف الامين للحكومة البريطانية » قد بلغ به الشح والتردد حدودا مزرية حين ذهب اليه فى سنة ١٩٣٣ سماحة الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين ، ومعه سعادة الاستاذ محمد على علوبة باشا (سفير مصر فى الباكستان الآن) ، وعرضا على سموه حاجة فلسطين المجاهدة للمال والاصلاح فاعتذر لهما بأنه لا يريد أن يقدم على تصرف يتعارض مع السياسة البريطانية ، فقالا له ان هناك مشروعا لانشاء مدرسة اسلامية كبرى بالقدس تبرع لها أهل فلسطين بعمارة ثمنها مائة الف جنيه ، ورصدوا لها ايرادا سنويا قدره عشرة الاف جنيه من الاوقاف فلا أقل من ان يساهم سموه بجانب من المال لاتمام المشروع وهو مشروع غير سياسى ، فوعدهما بالنظر فى الموضوع ثم كان كل ما تبرع به مائة الف روبية (أى أقل من سبعة آلاف جنيه) أرسلها بطريق اللورد ريدنج اليهودى الذى كان اذ ذاك نائبا للملك فى الهند وطلب تسليمها الى المندوب السامى البريطانى فى فلسطين !

وقد ظل المبلغ محجوزا لدى الانجليز فى فلسطين حتى غادروها سنة ١٩٤٨ وسلموا المبلغ الى ادارة الاوقاف بالقدس ...

* * *

الى هذا الحد بلغ استسلام الرجل للانجليز ، وولاؤه الاعمى للامبراطورية البريطانية ...

أما الناحية المظلمة الاخرى فى طبيعته ، فهى تمسكه بنظام الحكم الاقطاعى الاستبدادى رغم تطور الدنيا من حوله ، وانتشار النظام الديمقراطى فى بقية أنحاء الهند .

ويملك نظام حيدر أباد نحو ثمن مساحة الدولة ، أى أكثر من عشرة آلاف ميل مربع من الارض الزراعية ، ويذهب ايرادها كله الى خزانته الخاصة ، وتسمى هذه الممتلكات باسم « الصرف الخاص » ، وله مطلق التصرف فيها لحسابه الخاص . وان يديرها وزير من الوزراء يتبع النظام مباشرة . ولها بوليس خاص وخزانة خاصة ونظام خاص للمحاسبة

وقد أصدر النظام فى أوائل العام الحالى ، وبعد مفاوضات بينه وبين حاكم حيدر اباد العسكرى ، فرمانا يقضى بوضع « الصرف الخاص » تحت رقابة الحكومة تتصرف فيها وتديرها طبقا لما تراه .

وقد بدأ الاحتكاك بين الهند والنظام يتخذ مظهر عمليا عند ما تفاقمت اعتداءات فرقة الرزاقة، برياسة قاسم رزقى ضد الهندوكيين، متخذين من التعصب الدينى وسيلة للنهب والسلب حتى اذ كان اليوم السابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٨، وقف الbandيت نهرو فى البرلمان الهندى . والقى خطابا خطيرا قوبل بالتأييد والتصفيق الحاد اعلن فيه اول انذار نهائى وجه الى نظام حيدر اباد .

وفى ختام الخطاب اشار البانديت نهرو اشارة صريحة الى نوايا الحكومة الهندية . واحتمال قيامها « بحركة بوليسية » ضد حيدر اباد فقال :

« ومهما تكن الخطوات التى قد نتخذها فى صورة حركة بوليسية أو غيرها ، فان تعليماتنا ستكون محددة وصريحة بأن تقمع بأقصى الشدة أية مشاغبات طائفية من أى نوع كانت ومن أى طائفة جاءت » !

ولم يكد خطاب البانديت نهرو يعلن حتى بادر كثيرون من أصدقاء النظام وفى مقدمتهم نواب رامبور (وهو من الامراء المسلمين) الى تقديم النصح الخالص اليه بالتخلص فى الحال من الرزاقة ، واقامة حكومة ديمقراطية . واعلان انضمامه الى اتحاد الهند ، ولكن هذه النصائح كلها ذهبت مع الاسف أدراج الرياح ، ورفض

النظام رفضا باتا أن يسمح بعودة القوات الهندية أو يخطو أية خطوة للاتفاق مع حكومة الهند ، معتمدا فيما يبدو على نجدة الحكومة البريطانية التى يحمل عندها لقب « الحليف الامين » . . . ولعله كان يتوقع منها على الاقل أن تحول بين الهند وبين حل النزاع بالقوة المسلحة ، وهو أمل قد لايكون مفهوما أو سائغا لدى البعيدين عن مسرح الحوادث ، ولكنه كان ولا شك قائما على عقيدة راسخة لدى النظام بأن بريطانيا هى كل شىء ، وأن « حليفها الامين » يستطيع أن يعتمد عليها فى كل شىء . . .

ورغم ذلك فقد وقع ماكان يراه النظام مستحيلا ، ودقت الساعة الفاصلة فى الساعة الرابعة من صباح يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٤٨ ، اذ دخلت القوات الهندية حدود حيدر اباد من عدة جهات .

وكان الهجوم الرئيسى من ناحية شولابور ، تحت قيادة الجنرال تشودرى ، أصغر قواد الجيش الهندى . بينما قام سلاح الطيران الهندى فى ثمانى ساعات بتحطيم جميع مطارات النظام ، وبذلك استحال على طائرات النظام ان تؤدى أى عمل من الاعمال ، كما استحال وصول أى مدد جوى من باكستان أو غيرها من البلدان التى كان يخيل للنظام انه يستطيع ان يعتمد عليها فى ساعة المحنة التى جرها على نفسه وبلاده . .

ولم يدم القتال سوى خمسة أيام رأى خلالها السيد لايق على رئيس الوزراء ان يرفع استقالته الى النظام . فأذاع فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ١٧ سبتمبر بيانا بالراديو مودعا منصبه بهذه العبارات :

« ان تاريخ الايام الخمسة الماضية لايمكن ان ينسى ، وقد أدركنا اليوم ، وهو خامس أيام الصراع ، اننا قد حاربنا جهد ما استطعنا . وقرر مجلس الوزراء فى ساعة مبكرة من هذا الصباح انه لامحل لتضحية الدماء البشرية بلا جدوى

« وقد رأى المجلس بعد استعراض هذه الحقائق ان يرفع

استقالته ، ويضع مسئوليات الحكم بين يدى الحاكم الكريمتين (أى النظام) .

« ومع أن هذا الرجاء المتواضع وصل متأخرا فان النظام قد قبله . ووافق على أن ينهض بكامل المسئولية ويؤلف وزارة جديدة تتولى الحكم من الغد .

« وكذلك امر بوقف اطلاق النار فى الساعة السابعة عشرة بعد ظهر اليوم من جانب قوات حيدر اباد .

« وقد اخطر حاكم الهند العام بأن قوات الجيش الهندى تستطيع أن تتقدم دون مقاومة الى سكندراباد ، وان هيئة الرزاقة ستحل »

وهكذا طارت امال النظام الكاذبة فى المقاومة أو النجدة .

وفى ساعة مبكرة من صباح يوم ١٨ سبتمبر جرت مراسم تسليم الجنرال عيدروس ، قائد جيش حيدر اباد ، للجنرال تشودرى على مقربة من سكندرباد .

اما قاسم رزقى زعيم الرزاقة الفاشستى ، الذى اشعل نار الفتنة وغرر بالنظام ، واضاع كل فرصة للاتفاق مع الهند ، فقد ازال لحيته وهرول الى مطار سكندراباد فوجده حطاما ، وكان فى مقدمة الاوامر التى أصدرها الجنرال تشودرى بوصفه حاكما عسكريا ، أمر بالقبض على قاسم رزقى ، فقبضت عليه قوات حيدر اباد وسلمته للسلطات الهندية .

وكان النظام قد أرسل الى مجلس الامن شكوى من غزو بلاده ، أثيرت حولها مناقشات حامية ، وايدها ممثل بريطانيا بطبيعة الحال ، ثم أجلت المناقشة أياما كانت الحوادث خلالها قد تطورت على النحو الذى أسلفناه ، فأرسل النظام فى ١٨ سبتمبر برقية الى وفد حيدر اباد يطلب منه سحب الشكوى ، فلما رفض الوفد تنفيذ أمره ، عاد فأرسل برقية أخرى الى مستر تريجفى لى وصفه سكرتيرا عاما لهيئة الامم المتحدة يبلغه دهشته لما جاء فى الصحف من ان السيد ظافر أحمد وزير خارجية حيدر أباد صرح أمام مجلس الامن بانه لم يتلق اية تعليمات بسحب الشكوى

مع انه أرسل برقية الى نواب معين نواز بذلك . واضاف النظام انه دفعا لكل شك يوجه الخطاب مباشرة الى مستر تريجفى لى طالبا سحب الشكوى .

وفى ٢٣ سبتمبر أذاع النظام أمام الميكروفون — للمرة الثالثة فى حياته — بيانا قال انه يوجهه الى «الزعماء والاصدقاء فى البلاد الاسلامية» .

وفى هذا البيان استنكر النظام بشدة حكم الرزاقة الارهابى الذى دام ثمانية أشهر ، وقال ان وزارة لايق على فرضت عليه فرضا ، وسلبته كل سلطة . ثم قال النظام بالحرف الواحد :

« ان هذه الجماعة ، وعلى رأسها قاسم وزقى ، استولت على مقاليد الحكم بأساليب تعيد الى الذهن ذكرى المانيا النازية ، ونشرت الذعر فى نفوس مختلف عناصر المجتمع ، لا فرق بين مسلم وغير مسلم ، التى رفضت ان تركع لمشيئتها ، كما ارتكبت جرائم السلب والنهب على أوسع نطاق ولا سيما ضد الهندوكيين ، وجعلتنى فى حالة عجز مطلق »

واستطرد النظام فقال : ان تلك الجماعة كانت تهدف الى انشاء دولة اسلامية لا يتمتع بجنسيتها وحقوقها سوى المسلمين فى حيدر أباد ، ثم قال :

« وان طبيعة الاشياء فى حيدر أباد ، التى بين سكانها ٨٦ فى المائة من الهندوس ، تأبى ان تجعل من حيدر أباد دولة اسلامية » .

وكان قد ذاع ان الحكومة العسكرية الهندية تضيق الخناق على النظام فاذاع فى ٨ اكتوبر (فرمانا) قال فيه :

« نقل الى علمى ، كما أننى طالعت فى بعض الصحف الاجنبية روايات مفادها أننى أعانى ضغطا وتضييقا على حريتى فى التنقل ، وبعبارة أخرى أننى لست حرا فى تصرفاتى . وهذا غير صحيح على الاطلاق . فاننى على العكس أرتبط بأوثق الروابط القلبية مع الاتحاد الهندى والادارة العسكرية ، ولم أتعرض لأى ضغط من أى نوع كان ، بل اننى أتمتع بكل صنوف الاحترام والمجاملة التى تليق بمركزى السامى كرئيس للدولة »

وعندما زار السردار باتل ولاية حيدر اباد فى فبراير من العام الماضى (١٩٤٩) استقبله النظام والحاكم العسكرى فى المطار ، والقى خطابا على الجماهير فى ميدان الفاتح حمل فيه حملة شعواء على نظرية الشعبين (الهندوكى والمسلم) واستحالة التعاون بين الطائفتين ، ونصح للذين يعتنقون هذه النظرية أن يذهبوا الى باكستان ، واضاف الى ذلك قوله :

« ولا سبيل الى التقدم اذا لم تكن هنالك وحدة كاملة بين الهندوس والمسلمين والمسيحيين والمنبوذين . وعلى كل فرد من هذه الطوائف أن يعتبر كل فرد من الطوائف الاخرى أخا له . وعلى الاغلبية أن تخلق فى نفس الاقلية شعورا بالاطمئنان . فلا بد أن تشعر الاقلية (أى المسلمون) بانها فى أمن وسلام ، وانها ستظفر بنصيبها الحق . وعلى الاقلية من جانبها أن تكون مخلصة للدولة

« لقد ولدنا جميعا ونشأنا فى أرض واحدة ، وعلينا أن نعيش ونموت معا فى هذه الارض نفسها ، وان نؤمن ايمانا قلبيا بتعاليم المهاتما غاندى »

وقد اختفت هذه النغمة الرقيقة حينما تحدث رجل الهند الحديدى عن الشيوعية فقال :

« اننى لن اسمح لشيوعى واحد هنا ان يظل على قيد الحياة لان الشيوعية لن تنفث سمومها عندئذ فى هذه الولايه وحدها بل فى الهند كلها ... ولا اظنكم تريدون ان تصبح الهند وقودا لنار الشيوعيه ، كبورما والصين!

أما الحاكم العسكرى فى حيدر باد الجنرال تشوردى فقد تحدثت عنه فى مكان اخر من هذا الكتاب ، ويحسن ان نختتم هذا الفصل بكلمه اذاعها بخمس لغات فى منشورات الصقت بانحاء البلاد قال فيها :

« ان الحكومه العسكريه لا تعرف المحاباة الطائفيه ، وقد ضربت وستضرب بشده على ايدى مخالفى القانون من اى طائفه كانوا

« انشروا انجيل السلام بين الطوائف ، التى خلقها الله كلها متحدة ولكن الانسان وحده ، بجهالته ، سعى الى تمزيقها والتفريق بينها ، فعلى كل منكم ان يفكر للسلم ، ويتكلم للسلم ، ويعمل للسلم ، ولن يكتب لكم النجاح والفلاح الا اذا جمعت بينكم روابط الاخوة وعشتم فيما بينكم اخوة »

هذه قصه حيدر اباد ،ونظام حيدر اباد ، على حقيقتها بلا مواربه ولا مجامله . وهى قصة كاد الذين اساءوا فهمها عن قصد او غير قصد ، يضعون مصر والشرق الاوسط فى احرج الاوضاع ، ويفقدونهما صداقة الهند وزعمائها ، لولا مسارعة سفير الهند فى مصر ، المغفور له الدكتور سيد حسين ، الى مصارحة المسئولين والرأى العام فى مصر بالحقائق الدامغة عند اشتداد النزاع بين الهند وحيدر اباد وخلاصه هذه الحقائق ان حيدر اباد ليست دوله اسلاميه ، وليست بلدا مستقلا ، ولا ديمقراطيا ، وان النزاع القائم بشأنها انما هو نزاع داخلى محض



كشمير

أما كشمير فلها قصة أخرى ،وان لم تكن بعيدةالشبه عن قصة شقيقتها المنكودة الحظ حيدرأباد

وكشمير أكبر ولاية فى الهند كلها ، اذ أن مساحتها ٨٤٫٤٧١ ميلا مربعا . وتقع فى أقصى الشمال الغربى للهند ، وتمس حدودها الهند ، وباكستان ، والتبت والتركستان الصينية ، والتركستان الروسية .

ومجموع سكان كشمير لايزيدكثيرا على أربعة ملايين نسمة أى بنسبة ٤٣ نسمة لكل ميل مربع . وبها عاصمتان هما جامو العاصمة الشتوية ، وسريناجارأو شريناجار العاصمة الصيفية وبها كذلك ٣٩ مدينة و ٨٩٠٣ قرى ، والسكان موزعون على الوجه التالى :

المسلمون —	٣٫٠٠٠٫٠٠٠نسمة
الهندوس —	١٠٠٫٠٠٠ نسمة
السيخ —	٦٠٫٠٠٠ نسمة
البوذيون —	٣٨٫٨٢٤ نسمة
المسيحيون —	٢٫٣٠٠ نسمة

وتعيش هذه الطوائف كلها فى تضامن واتحاد يضرب بهما المثل

واكبر مواردالبلاد هى السياحة اذ يفد عليها فى فصل الصيف من أنحاء العالم ألوف من السائحين الذين يطلبون فى هذا الوادى الجميل ، عندسفح جبال الهمالايا متعة للعين ورياضة للجسم قل أن يوجد لهما مثيل .

والزراعة هى المهنة الرئيسية للغالبية العظمى من السكان . ومع ذلك فان فى كشمير ثروة معدنية وفيرة جدا من مناجم الفحم والبترول والحديد والرصاص والذهب والكروم والنيكل والزرنيخ والرخام وغيرها .

ومن الصناعات المزدهرة التى تمتاز بها كشمير صناعة الصوف الكشميرى المشهور بجودة أنواعه وأشهرها الصوف المعروف بالباشمينا ، وتوضع عدة ياردات منه فى حلقة خاتم صغير ، ويصل ثمن القطعة الى ثلثمائة أو خمسمائة جنيه .

وقد احتضنت الحكومة صناعة الحرير ، وأنشأت مصنعا حكوميا كبيرا لاصناف الحرير الطبيعى فى شريناجار .

وهناك صناعة القطع الخشبية المشغولة بدقة تدعو الى الدهشة وصناعة الورق المضغوط المنقوش بأبدع النقوش ، ويصنعون منه صناديق للحلوى وأطقما (للتواليت) ومصابيح وأطباقا المزينة .

وهناك صناعات السجاجيد والفضة المشغولة وغيرها من الصناعات الدقيقة التى تشهد بالروح الفنية الدفينة فى اعماق هذا الشعب الرقيق الحال الذى يعيش فى وادى كشمير السعيد كما يسمونه .

ومع ذلك فان أهل كشمير يعدون أفقر أهل الهند على الاطلاق ... وقد قدر دخل الفرد من الفلاحين بما يعادل ثمانين قرشا مصريا فى العام كله ، اى نحو ستة قروش فى الشهر ! !

ويرجع تاريخ كشمير الى أقدم العصور ، ولها صفحات مجيدة سجلت فى كتاب قديم يسمى « راج تارانى » يرجع الى سنة ٣٫٠٠٠ قبل ميلاد المسيح ...

وقد وقعت كشمير فترة قصيرة تحت حكم الدولة البوذية أيام ازدهارها على عهد (أشوكا) ، ثم عادت سريعا الى حكم البراهمة حتى فتحها المسلمون سنة ١٣١٥ ميلادية ، وتعاقب على حكمها الباتان والمغول والافغان ، ثم غزاها السيخ على يد رانجيت سنج سنة ١٨١٩ ، ثم انتقل الحكم فى سنة ١٨٤٦ الى أيدى

وفى الساعات الاولى من صباح يوم ١١ يونيو سنة ١٩٣٩ اختفى اسم « المؤتمر الاسلامى » وحل محله أسم جديد هو « المؤتمر الوطنى فى جامو وكشمير » وانتخب لرياسة تلك الدورة مجاهد قديم من زملاء الشيخ محمد عبد الله فى الحركة الوطنية (وفى الوزارة الآن) هو السيد غلام محمد صديق فألقى خطابا قال فيه :

« ان هذا اليوم سيكتب بأضخم الحروف فى تاريخ النهضة الوطنية فى جامو وكشمير »

ومن ذلك اليوم بدأ كفاح المؤتمر يتخذ طابعا من الحركة الدائمة ، والمد والجزر، ومواجهة العواصف والاعاصير كأية هيئة تنصب نفسها للكفاح الوطنى الشاق .

فلما كانت سنة ١٩٤٤ طلع المؤتمر ببرنامجه الاشتراكى الجبار الذى حدده وفصله فى نشرة رسمية سماها « كشمير الجديدة » ويلخص هذا البرنامج فى اقامة حكومة ديمقراطية مسئولة ، تكون وسيلة لغاية مثلى هى تحرير الشعب من جميع صور الاستغلال الاقتصادى

وفى سنة ١٩٤٥ عقد المؤتمر الوطنى فى كشمير دورة تاريخية فى سوبور حضرها لفيف من زعماء حزب المؤتمر الوطنى فى الهند على رأسهم الباانديت نهرو ومولانا ابو الكلام آزاد وخان عبد الغفار خان (غاندى الحدود) . وكان للروح الودية التى أبداها زعماء المؤتمر الهندى نحو الحركة الوطنية فى كشمير صدى بعيد الاثر فى نفوس أهل كشمير

ونعود خطوة قصيرة الى الوراء لنذكر ان مهراجا كشمير كان قد طلب ان يضم الى هيئة الوزارة اثنان من أعضاء الجمعية التشريعية المنتخبين ، فاختار المؤتمر الوطنى السيد محمد أفضل بيج (وزير الاقتصاد الآن) . ولكن السيد بيج وجد الطريق غير ممهد لتنفيذ شيء من البرنامج الاقتصادى الذى وضعه المؤتمر لكشمير الجديدة ، كما قام بينه وبين رئيس الوزراء



خريطة الهند
مع دولة الباكستان الجديدة
باكستان
التبت
دلهى الجديدة
كراتشى
كلكتا
الهند
بورما
بومباى
مدراس
خليج البنغال
سيلان
بحر العرب
المحيط الهندى

خلاف دستورى حاد ، فاستقال الوزير فى ١٧ مارس سنة ١٩٤٦ ولم يلبث المؤتمر الوطنى ان قدم الى اللجنة الوزارية البريطانية مذكرة جاء فيها :

« ان المطلب الوطنى لاهل كشمير اليوم لم يعد مجرد المطالبة بحكومة مسئولة ، بل حقهم فى التحرر التام من حكم بيت دوجرا الاوتوقراطى » !

وقد أثار المؤتمر فى مذكرته الخطيرة مدى صحة معاهدة أمريتسار (١٨٤٦) التى باعت الحكومة البريطانية بمقتضاها بلاد كشمير الى جد دوجرا فى مقابل سبعة ملايين روبية ونصف مليون !

وهكذا ظهر الشعار المشهور « غادر كشمير » ... الذى تحدى بمقتضاه الشيخ عبد الله ومن ورائه المؤتمر الوطنى مهراجا كشمير ، وطالب كما لا يزال يطالب بنزوله عن عرشه الذى ليس له فيه حق ، اذ اشتراه اجداده من الانجليز على النحو الذى أسلفناه ..

وفى ٢٠ مايو سنة ١٩٤٦ غادر الشيخ عبد الله شريناجار ليقابل البانديت نهرو فى دلهى ، فالقى القبض عليه فى الطريق على مسافة مائة ميل من المدينة . واعلن الحكم العرفى فى البلاد فى اليوم التالى

وكانت النتيجة المحتومة ان سالت الدماء وانتشر الاضطراب وراح جنود المهراجا يطلقون النار على الاهلين بغير حساب ، ويأمرونهم بأن يسيروا على قدم واحدة هاتفين بحياة المهراجا بهادور ، ويرغموا الشيوخ والاعيان على الزحف على بطونهم والبنادق مسددة الى رؤوسهم .. ويجمعون المحامين والاساتذة بل وموظفى الحكومة ليسخروهم فى ملء الخنادق وكنس الشوارع ...

وقد أذاع البانديت نهرو بيانا للصحف عن حوادث كشمير عقب القبض على الشيخ عبدالله قال فيه :

« ان شريناجار تكاد تكون مدينة للموتى حيث لا حركة ولا حياة ٠ ٠ ٠ وقد زج عدة مئات من الناس فى السجون ، واصبحت المصادمات تتكرر يوميا ، ويطلق الرصاص على النساء ٠٠٠ ولكن ماهو شر وأنكى هو المحاولات المقصودة لاذلال آدمية الناس على نحو يعيد الى الاذهان ايام الحكم العرفى فى البنجاب سنة ١٩١٩ »

وفى ٣ يونيه بدأت محاكمة الشيخ عبد الله ، ثم أجلت الى ١١ يونية بناء على طلبه حتى يتصل بالمحامين عنه لاعداد دفاعه ثم اجلت المحاكمة مرة أخرى ، فأرسل البانديت نهرو الى رئيس وزراء كشمير البانديت رام كاك برقية قال فيها :

« علمت من الصحف بمحاكمة الشيخ عبد الله واخرين . أريد ان اتولى اعداد الدفاع عنه. اطلب جميع التسهيلات مع الوقت الكافى لذلك »

فرد عليه رئيس الوزراء بأن زيارته « لن تحدث سوى مضاعفات للموقف » .. فأرسل نهرو يقول : « لايمكن ان يسود السلام كشمير اذا لم يفرج عن الشيخ عبد الله » ..

ولم ينتظر نهرو تصريح السلطات فى كشمير ، بل غادر داهى الى شريناجار ليتولى الدفاع عن الشيخ عبدالله بنفسه . واذا بحكومة المهراجا تقبض على نهرو فى الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم ٢٠ يونيه سنة ١٩٤٦ ، ولكنها تخشى مغبة ابقائه فى الاعتقال فتبادر الى اعادته للهند . وكان لهذا الحادث دوى شديد داخل كشمير وخارجها . وقبض فى شريناجار وحدها على أكثر من ١٧٠٠ شخص ، وتكررت الاضطرابات والمصادمات .

وفى سبتمبر سنة ١٩٤٦ تمت المحاكمة وحكم على الشيخ عبد الله بالسجن تسع سنوات وغرامة ١٥٠٠ روبية بتهمة التحريض على الثورة .

وفى سنة ١٩٤٧ قصد المهاتما غاندى الى كشمير فى أول زيارة

لقد كان الطريق في الواقع واضحا امام الشيخ عبد الله لو أراد الاختيار فى الحال ، ولكنه آثر التروى والاعتدال . . فلندعه يتولى بنفسه شرح الموقف :

« انه ليسرنى أن أقول أننا طوال جهادنا للوصول الى حق الشعب في تقرير مصيره ، اثناءحركة «غادركشمير» وبعدها،كنا نلاقى تأييدا حارامن زعماءالمؤتمر الوطنى (الهندى) الذين كانوا يهدفون ايضا الى تقرير هذاالحق ، ولكن زعماء الرابطة الاسلامية (مسلم ليج) كانوا على العكس من ذلك راغبين عن تايد حق شعبنا فى تقرير مصيره وكانوا يحتجون بان المشروع البريطانى ، فيما يتعلق بالولايات المستقلة يجعل ارادة الامراء هى الفيصل فى الموضوع ، وكانت سياسة الرابطة الاسلامية فى هذا الصدد مسئولة الى حد غير قليل عن استمرار عبوديتنا ، وقد حاولت ان استميل زعماء الرابطةالاسلامية الى وجهة نظرنا وهى ترك الامر لارادة الشعب ،فاوفدت احد زملائى الى لاهور لاقناع زعماء الرابطة الاسلاميةبعدالة مطلبنا . وقد قلنا لهم بصراحة انه فيما يتعلق بقرارالانضمام ، يطلب شعب ولاية جامو وكشمير حريته فى استخدام حقه الديموقراطى فى تقرير مصيره . وطلبنا اليهم انيمنحونا مهلة لنقرر بانفسنا ما يعود علينا من المزايا والاضرارباختيار احد الطرق الثلاثة لتى نرى اختيار احدها ، وقلنا لهم انه ليس من الانصاف مطالبتنا بالانضمام الى احدى الدولتين بينما البلاد غارقة فى غمار الاضطراب الطائفى . وقدناشدناهم باسم الحرية التى تنادى الباكستان بانها تهدف اليها ، ان يؤيدوا مطلبنا فى الحرية »

وقد القى الشيخ عبد الله فى ٥ اكتوبر خطابا عاما فى شريناجار أعلن فيه أنه سيرفع علم الثورة ويدعو الشعب للنصر أو القبر اذا تخطت حكومة المهراجا ارادةالشعب واتخذت قرارا بالانضمام الى الهند أو الباكستان .

ولما أخفقت المحاولة الاولى فىاقناع الباكستان ، عاد الشيخ

عبد الله فأوفد الرسول مرة أخرى لمباحثة زعماء الباكستان . وبينما المباحثات مستمرة ، ومندوب الشيخ عبد الله يجادل بالحجة والمنطق فى لاهور مع رجال الرابطة الاسلامية ، اذا بقوات من القبائل تجتاز أرض الباكستان مسلحة أحدث تسليح ومزودة بكل ما تحتاج اليه من ذخيرة وعتاد وتهاجم مدينتى مظفر ابادو يورى داخل حدود كشمير ، فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٤٧

وفى هذا يقول الشيخ محمد عبد الله :

« وقد كان هذا هو رد الباكستان على الجهود التى بذلناها للوصول الى تفاهم ودى معها »

وكان مهراجا كشمير قد استدعى قبيل هذا الغزو قاضيا سابقا من البنجاب اسمه مستر ماهاجان ، وأسند اليه رياسة الوزارة ، فألفها على مسئوليته وحده بعد أن رفض الشيخ عبد الله كل تعاون معه فى الحكم لانه غريب على كشمير وشعب كشمير ولم يكد ماهاجان يتولى مقاليد الوزارة حتى صرح فى اول مؤتمر صحفى له ، بأن كشمير لم تنضج بعد للحكم الشعبى ، وأنه لن يسمح بقيامه قط فى كشمير ، وأن مهمة اعداد أهل كشمير لهذا النوع من الحكم تحتاج الى وقت طويل ... فلما هاجمت القبائل حدود كشمير على النحو الذى ذكرناه ، أعلن ماهاجان أن جيوش دوجرا (أسرة المهراجا) قادرة على رد العدو على أعقابه وسحقه فى خلال أسبوع !!

ولكن الذى حدث كان شيئا آخر يختلف عن هذا الكلام الاجوف . ففى خلال أيام كان اقليم مظفر اباد قد وقع كله فى أيدى الغزاة كما وقعت فى أيديهم مدينة جارى ثم برامولا ، وأصبح العدو على أبواب العاصمة الصيفية شريناجار ..

وهنا تطورت الحوادث على نحو لم يسبق له مثيل .. فقد هرب المهراجا بجلده ومعه رئيس وزرائه ، وترك العاصمة الشمالية منحدرا الى العاصمة الثانية جامو طلبا للسلامة ، تاركين شريناجار تواجه مصيرها المنتظر بلا حكومة ولا ادارة ولا جيش ولا نظام !

وفى هذه اللحظة ثبت الشيخ محمد عبدالله وزملاؤه ، وراحوا يلهبون حماس أهل المدينة لانقاذ كرامتهم واستقلالهم من الغزاة وعهدوا بمهمة الدفاع عن المدينة الى فرق منظمة من المتطوعين رجالا ونساء ، تحت راية المؤتمر الوطنى ، وتحت اشراف الشيخ عبد الله نفسه .

واستنجد زعيم كشمير المناضل بصديقه ومواطنه زعيم الهند ورئيس وزرائها نهرو ، فجاءت النجدة العاجلة فى صورة طائرات حربية ضخمة تحمل الرجال والذخيرة الى الميدان على أبواب كشمير فى ٢٧ أكتوبر . أى بعد خمسة أيام من بدء الغزو المفاجىء .. واضطر المهراجا فى غمرة هذه الحوادث الجسيمة الى أن يعهد برياسة الادارة المؤقتة فى البلاد الى الشيخ عبد الله ، وأقسم الزعيم اليمين القانونية فى ٣٠ اكتوبر . ولم يلبث أن القى خطابا فى الموظفين قال فيه :

« عليكم من الآن فصاعدا أن تجعلوا ولاءكم للشعب لا للمهراجا .. وكل من يخون الشعب سيكون جزاؤه الطرد .. ان مدافع القبائل المغيرة لا تستطيع ارغامنا على الانضمام الى الباكستان ... فنحن نريد ان نكون أحرارا ، وسنكون أحرارا »!

ولم يلبث الغزاة أن ردوا على أعقابهم ، بفضل متطوعى المؤتمر المجاهدين ونجدة الجيش الهندى وسلاح الطيران الهندى .

وفى ١١ نوفمبر وصل البانديت نهرو الى شريناجار ، وهناك القى خطابا فى الجماهير الحاشدة الهاتفة بحياة (شيري كشمير) أى (اسد كشمير) الشيخ عبدالله ، وحياة الزائر الكريم ، قال فيه :

« انكم يا أهل كشمير قد ألقيتم درسا نموذجيا على شعب الهند .... فقد بين (شيري كشمير) لسائر انحاء الهند وللعالم اجمع كيف تتحقق الحرية والوحدة الطائفية »

وقد حدث على اثر فرار المهراجا من شريناجار أن ارسل هو من ناحيته والشيخ عبدالله من ناحية اخرى برقيات الى حكومة الهند

تتضمن اعلان انضمام كشمير الى الاتحاد الهندى ، ومطالبة الهند بارسال نجداتها طبقا لهذا القرار .

ولكن حكومة الهند قررت ان تلبى داعى النجدة بلا تردد ولا امهال . اما قرار الانضمام فقد اعتبرته قرارا مبدئيا تقبله عن طيب خاطر ، على شرط ان يقره شعب كشمير فيما بعد ، حين يرتد العدو ، وتستقر الاحوال .

وبادرت الهند فى الوقت نفسه الى تقديم شكوى ضد الباكستان متهمة اياها بتحريض القبائل ومساعدتها فى العدوان على كشمير

وسافر الشيخ محمد عبد الله الى هيئة الامم حيث القى خطابا مستفيضا امام مجلس الامن جاء فيه :

« اعتقد ان مجلس الامن يوافق على اننى ربما كنت الشخص الوحيد الذى يعنيه الخلاف الحالى اكثر من اى شخص سواه ، لاننى حضرت اليكم من البلد الذى اصبح موضع النزاع بين الدولتين الشقيقتين الهند وباكستان .

« لقد افاض كلا الطرفين فى اقتباس اقوالى وتصريحاتى ، ولهما فى ذلك كل الحق ، فقد كان من حسن حظى — ام الاخلق بى ان اقول من سوء حظى — أن أقود أبناء وطنى فى جهادهم للحرية منذ سنة ١٩٣١ . وقد عانيت فى سبيل ذلك الشىء الكثير ، وألقى بى فى السجن لا مرة ولا مرتين بل سبع مرات ، كانت الاخيرة منها بمقتضى حكم يقضى بحبسى تسع سنوات »

واستطرد الشيخ عبد الله فشرح الظروف التى أفرج عنه فيها ، هو وانصاره ، تحت ضغط الحوادث التى أقلقت الاقلية فى كشمير بوجه خاص ، ثم ذكر كيف رأى ضرورة حصول الشعب على حريته قبل اختيار الانضمام الى الهند أو الباكستان ، وكيف قبلت الهند ذلك ورفضته الباكستان .

ثم قال :

« يقولون ان الشيخ عبد الله صديق البانديت نهرو . نعم ، انى اقرر ذلك . وانى لاحس بالفخر لان رجلا عظيما كهذا ينشد صداقتى . ثم انه من أبناء وطنى . فهو كشميرى

المنبت . والدم كمـــا يقولون أكثف من الماء ، فاذا كان جواهر لال يضفى على هذا الشرف فلا يسعنى أن أرفضـــه . انه صديقى .

« ولـكن هـذا لا يعنى اننى بسبب هـذه الصداقة يمكن أن أخون الملايين من أبنـاء وطنى الذين شـــاطرونى الالم طوال السنوات السبع عشرة الماضية ، وان اضحى بمصـالح وطنى . كلا . فلست من هـذا الطراز من الرجال ... » .

ومضى الشيخ عبدالله فأوضح وجهـــة نظره بضرورة اجراء استفتاء للشعب بعد ان يظفر بحريته . وفند النظرية القائلة بتنحيته هو عن الحكم مادام قد ابدى هذا الرأى فقال :

« لقد سبق أن بينت لاعضاء هـذا المجلس (مجلس الامن) أن الشيخ عبدالله يتولى منصبه الحالى لان الشعب يريد ذلك . وما دامت هـذه ارادة الشعب فاننى سأظل فى مكانى ، ولا توجد قوة فى الارض تستطيع أن تنحينى عنه طالما كان الشعب من ورائى . أما اذا نزع الشعب ثقته منى فلن ابقى فى منصبى »

وكان الطلب الوحيــد الذى طلبتــه الهند هو ايفاد لجنة تحقيق دولية لترى بنفسها كيف انتهكت حدود كشمير وتقـدر مسئولية الباكستان عما حدث .

وقد أصــدر مجلس الامن بالفعل قرارا بتأليف هذه اللجنة وعين لرياستها الاميرال نيمتز القائد البحرى السابق للاسطول الامريكى . ثم تدخـل الرئيس ترومان ومســتر اتلى فى أواخر شـــهر اغسطس سـنة ١٩٤٩ وناشد كلا من الهند والباكستان أن يعتبرا مهمة اللجنة غير قاصرة على التحقيق ، بل تصبح أيضا لجنـــة توفيق ووساطة لحل الخلاف القائم حول مصير كشمير ولـكن الهنـد رفضت هـذا الاتجاه . .

أما الشيخ عبد الله فقد ردعـلى ذلك بتوكيـد انضـــمام كشمير الى الهند

وقد مر الشـيخ عبـد الله بمصر فى ٩ ديسمبر الماضى ، فى طريقه الى امريكا لحضور المناقشة فى قضية كشمير امام هيئة الامم

خواطر متناثرة فى سطور

* استغرقت رحلتنا الاولى بالبحر الى بمباى فى سنة ١٩٣٩ ، ٩ أيام ، بينما استغرقت رحلتنا الثانية من القاهرة الى بمباى رأسا بالطائرة ٩ ساعات ...

* سافرت فى المرة الاولى على احدى بواخر شركة (بى أند أو) وهى انجليزية .. وسافرنا فى المرة الثانية على احدى طائرات شركة (اير انديا انترناشنال) وهى هندية .. يملكها المليونير الهندى المعروف تاتا ، وهو يملك عدا شركة الطيران المذكورة ، أكبر مصانع النسيج ، وأكبر مصانع الصلب ، وأكبر مصانع الصابون والعطور ، وهو يقوم الان بمشروعات ضخمة لصنع القطارات وجميع أجزاء الطائرات فى الهند . وهو من طائفة البارسى ، عباد النار . كما يعد من أكبر المحسنين فى الهند . وقد انشأ على حسابه الخاص معهدا للابحاث العلمية ينفق عليه بسخاء . ويستخدم فيه طائفة من اكبر علماء الهند .

* كانت رحلتى الاولى سياسية ، كعضو وسكرتير لبعثة الوفد الى المؤتمر الوطنى فى الهند ، وكان يرأس البعثة المرحوم بسيونى بك واعضاؤها هم الاساتذة محمود ابو الفتح واحمد حمزة وكاتب هذه السطور .

وكانت الرحلة الثانية صحفية ضمن بعثة مؤلفة من الاساتذة الزملاء : احمد ابو الفتح رئيس تحرير المصرى ، واحسان عبد القدوس رئيس تحرير روزاليوسف ، وصلاح عبد الجيد عن مجلة النداء ، وزكريا الشربينى عن جريدة الاهرام

وعبد الحميد الحديدى عن الاذاعة المصرية ، وكاتب هذه السطور عن اخبار اليوم واخرساعة ..

* كان يمثل مصر فى الهند سنة ١٩٣٩ قنصل فى بمباى هو الاستاذ صادق أبو خضره وهو موظف بوزارة الخارجية الآن بينما كان يمثلها فى زيارتنا الاخيرة سفير هو سعادة الاستاذ اسماعيل كامل بك يعاونه نخبة من شباب السلك السياسى اللامعين أذكر منهم الاساتذة : سميكه بك مستشار السفارة وصلاح الدين العبد الملحق التجارى وعزيز شكرى الملحق السياسى . كما يمثل مصر فى بمباى قنصل شاب هو الاستاذ مصطفى السعدنى . وقد لمسنا تقديرا صادقا ومحبة عميقة لهم فى نفوس الهنود على اختلاف طبقاتهم .

* توثقت عرى الصداقة بين السفير المصرى اسماعيل كامل بك وبين رئيس حكومة الهند وزعيمها الباانديت نهرو واسرته . وقد أخبرتنى السيدة كريشناهايتسنج شقيقة نهرو أنها كانت سعيدة كل السعادة عندما كلفها سفيرنا بأن تقوم بدور (المضيفة) فى احدى حفلات السفارة المصرية التى دعى اليها أكبر الشخصيات الهندية ورجال السلك السياسى الاجنبى ، وكانت تتأبط ذراع السفير المصرى كما لو كانت السيدة الاولى فى السفارة . نظرا لان السفير وجميع رجال المفوضية عزاب ... وهى ظاهرة لفت نظرنا اليها عدد من كبار الشخصيات الهندية من قبيل المصادفات الطريفة ...

* صادف وجود البعثة الصحفية فى الهند ، وجود بعثة انجليزية من رجال الصحافة ، على رأسها اللورد ليتون وبين أعضائها مستر تشانسلور مدير شركة روتر ومستر كول المحرر بها . وذلك بمناسبة تحويل فرع شركة روتر فى الهند الى شركة هندية اسندت رياسة مجلس ادارتها الى مستر ديفداس غاندى ، النجل الاكبر للمهاتما غاندى وهو رئيس تحرير جريدة هندستان تيمس . وقد أصبح ديفداس من اغنى



الصحفيون المصريون فى زيارتهم لبعض مدارس الهنـــد

الصحفيين الهنود وهى مفارقة كبرى بين طبيعة الولد والوالد وقد كان لغاندى ولد اصغر ادعى اعتناق الاسلام نكاية فى والده ثم ارتد ، وقد قال عنه والده كلمته المشهورة : « لو كان صادقا فى اسلامه لكنت أول المصفقين له . ولكنه منافق لا يزيد الاسلام شيئا ولا ينقص الهندوكين شيئا » !! وقد مات أثناء الحرب الاخيرة .

* دعيت لترتيل القرآن فى الهند أثناء زيارتنا الصحفية مرتين مرة فى صومعة غاندى كجزء من الصلاة المشتركة . ومرة فى كشمير أمام الشيخ محمد عبدالله رئيس الوزراء وعدد من الوزراء وسمعت تلاوة رائعة لسورة الفاتحة وسورة التوحيد من أحد الهندوكيين فى (ورده) حيث بدأ غاندى حركته الاصلاحية الكبرى واختارها دون سواها باعتبارها قلب الهند ، أى القرية التى تتوسطها تماما ..

وفى دار المؤتمر بهذه القرية النائية اتخذ المؤتمر الوطنى أخطر قراراته ، وبدأ غاندى صومه التاريخى مرتين . فوفد اليه مندوبو الصحف الامريكية والاوروبية والهندية ، رغم حرها اللافح وقلة وسائل الراحة فيها . وقد قضينا بهذه الدار ليلتين ، وكانت من نصيبى الغرفة التى اعتاد نهرو ومولانا ابوالكلام أن يناما فيها أثناء تلك الاوقات العصيبة .

* يعتبر الرقص الهندى نوعا من العبادة والقصص التمثيلى ، ويمارسه الراقصون والراقصات حفاة الاقدام . ويعنون عناية خاصة بحركات اليدين والعنق . ومع ذلك فقد كان هذا الرقص الى عهد قريب وقفا على طبقة الغوانى ، ثم بدأت حديثا حركة للارتفاع به عن هذا المستوى ؛ تتزعمها رئيسة الجمعية الثيوصوفية التى خلفت مؤسستها الانجليزية المشهورة أنى بيزانت . وقد شهدنا مشاهد راقصة فى حفلة جمعت بيننا وبين بعثة روتر فى مدراس ، كما شاهدنا بعضها على مسرح بالمدينة .

* والافلام السينمائية الهندية شديدة الشبه بالافلام المصرية ، ولا سيما من ناحية اعتمادها على العنصر الغنائى ، والاقتباس من الافلام الامريكية ، وتحتل الفنانات المسمات مكانة ممتازة فى دنيا السينما ، ومن اشهرهن ثرياوريحانة ، وسلطانة وجلنار (وهى من الوجوه الجديدة ، وهناك ايضا عدد من الكواكب المسلمين ومخرجى الافلام ومؤلفى الاغانى ، تملأ اسماؤهم اعلانات الحوائط والصحف فى كل مكان ، مما يدل على ان الفن فى الهند قد نجا من شرور التعصب الطائفى .

* لعل رئيس وزراء كشمير الشيخ (محمد عبد الله) او (شيخ صاحب) كما ينادونه هو اول رئيس وزراء فى العالم يفتتح خطبه أمام عشرات الالوف من الجماهير بتلاوة آيات من الذكر الحكيم بطريقة التجويد . وهو يختار على الدوام ايات الحماسة والقتال . وهو حائز لدرجة بكالوريوس فى العلوم من جامعة عليكره الاسلامية ، وقد قضى نحو عشرة اعوام من حياته فى السجن بسبب نشاطه السياسى ، وحكم عليه اخر مرة بالسجن تسع سنوات لم يكد يقضى منها عاما او نحوه حتى حدث غزو كشمير واضطر مهراجا كشمير تحت ضغط الحوادث وتحت ضغط الزعيم غاندى الى اطلاق سراح الشيخ عبد الله وترك مقاليد الوزارة بين يديه .

ويدرك القارىء من هذه الوقائع كثيرا من أوجه الشبه بينه وبين صاحب المعالى مكرم عبيد باشا . الذى خرج من السجن الى الوزارة فى عام ١٩٤٤ والذى يجيد القرآن ويستشهد به فى المناسبات كما أن كلا الرجلين خطيب شعبى من الطراز الاول . وهم يطلقون على الشيخ عبد الله (وهو لايرتدى العمامة كما قد يتبادر الى الاذهان) لقب (شيرى كشمير) أى (اسد كشمير)

* كان يجلس الى جانبى فى الطائرة عند سفرنا من جامو (عاصمة كشمير الشتوية) الى شرينا جار (العاصمة الصيفيه) صبى انيق فى العاشرة من عمره بالملابس الافرنجيه . وقد سألته ما اسمك ؟ فاجاب

— شيخ فاروق محمد عبدالله ..

وهو نجل رئيس الوزراء . وله نجل اخر اسمه طارق .
وكلاهما يتمنى ان يتم تعليمه فى مصر .

* ليس من المبالغة فى شىء ان يقارن المرء بين كشمير وسويسرا ومن اعجب ما يشاهده الزائر هناك جزائر صغيرة مستطيلة متجاورة فى وسط البحيرات ، يسمونها « الجزائر العائمة » ، وهى عائمة فعلا رغم انها مزروعة وكثيرا ما حدث ان عمد اللصوص الى دق الاوتاد فى الجزر وسحبها الى مكان اخر اثناء النيل .. بما عليها من محصول !

* قابلنا نظام حيدر اباد فى قصره بناء على موعد حصل عليه الجنرال تشودرى حاكم حيدر اباد العسكرى . وهو شاب فى الاربعين من عمره . ويعتبر أصغر جنرال فى الجيش الهندى وقد خاض معركة العلمين . وروى لى كيف أعلن راديو لندن قبيل المعركة ان القوات البريطانية مصطفة على اهبة الاستعداد للهجوم ، فرق له أحد ضباط جنوب أفريقيا مندهشا لان القوات التى اصطفت للهجوم كانت من جنود نيوزيلندا واستراليا والهند وجنوب افريقيا ، ولم يكن بينها جندى انجليزى واحد !!

* اخطأ بعض الزملاء شخصية نظام حيدر اباد حينما نزلنا من السيارة الى درج السلاملك الداخلى مباشرة فوجدناه واقفا على السلم يستقبلنا الى جانبه الجنرال تشودرى الذى كان على رأس الجيش الهندى الذى هزم قوات النظام . وقد استبعد الزملاء ان يكون الواقف هو النظام نفسه ، نظرا لقلة هندامه وقدم طربوشه وخلوّ يديه وملابسه من أية زينة

* قدمت للنظام مصحفا صغيرا وقدم له زميلى الاستاذ احمد ابو الفتح مصحفا آخر هدية منا . فتقبلهما باسما راضيا ، ثم قال لاحد الخدم شيئا باللغة الاوردية ، فحسبناه يطلب قهوة أو شرابا لتحيتنا ... ثم تبين انه طلب ادارة المروحة التى فى السقف ، وانصرفنا بعد المقابلة دون ان يقدم لنا شىء على الاطلاق !

ومما يذكر ان نظام حيدر ابادلا يستقبل أحدا من أهل البلاد دون ان يقدم الى سموه قطعة ذهبية يسمونها أشرفية ، وهى تعادل نحو عشرة جنيهات

* لمصر فى نفوس الهنود وفى مخيلتهم صورة ساحرة ، وهم يتحدثون عن عظمتها وآثارها وجمالها وتاريخها بحماسة مؤثرة ويتمنون زيارتها كحلم من أحلام العمر . وان معلوماتهم عن مصر الحديثة ومشاكلها تافهة الى أقصى حد .

ومع ذلك فان مندوب وزارة الاستعلامات الذى عهد اليه بمرافقتنا فى بمباى كان يقارن أثناء تجوالنا بين بعض انحاء المدينة وبين القاهرة ، فيقول هذا الشارع يشبه شارع سليمان باشا ، وهذا مثل شارع فؤاد الاول ... فلما سألته كم مرة زار مصر ، قال انه لم يرها قط ، ولكنه لفرط محبته لها جعل هوايته جمع الصور والمعلومات عنها أينما كان ، حتى حفظ شوارعها وأعلامها عن ظهر قلب ! !

* الدعاية الصهيونية متفوقة تفوقا ساحقا على الدعاية العربية التى تكاد تكون معدومة الاثر فى الهند . وقد كان أول ما طالعنى عند هبوطنا ليلا فى مطار بمباى مجلة اسمها « الهند واسرائيل » محشوة بصنوف الدعاية لصهيونية والتشهير بمصر وسائر البلاد العربية . وهناك جريدة يومية من أكبر صحف الهند التى تصدر بالانجليزية اسمها « ستيتسمان » تملكها يهودية غنية اسمها ليدى ساسون . كما ان الصحف الهندية على اختلافها بالانجليزية وغيرها لا تنقطع يوما واحدا عن نشر الصور والمقالات حول مختلف انواع النشاط الاجتماعى والسياسى والرياضى فى اسرائيل ! !

* لم نجد لدى السفارة المصرية فى دلهى ولا عند القنصلية المصرية فى بمباى ، شيئا يذكر أو لا يذكر ، من النشرات والكتب والصور الخاصة بمصر بأية لغة من اللغات ... وأدهى من ذلك

ان الصحف المصرية نفسها لا تصل بانتظام ، ولا فى موعد مناسب ، وهى تعتبر المصدر الرئيسى لاخبار مصر عند ممثلى مصر !

* تخلصت الهند فى هذا العام من جميع المهراجات ، لضم ولاياتهم الى الاتحاد الهندى ، وتنصيب بعضهم حكاما دستوريين على مجموعات متحدة من تلك الولايات

وقد دبرت حكومة الهند بعض الاعمال فى السلك السياسى وغيره للفقراء من أولئك الحكام القدماء الذين كانوا يعتمدون فيما مضى على اعانات من الحكومة البريطانية .

* يرى كثيرون من المسلمين الذين فى الهند ، وعددهم نحو ٤٢ مليونا ، ان من مصلحتهم ان ينتهى النزاع القائم حول كشمير بانضمامها الى الهند ، تخفيفا لحدة النظرة الطائفية ، ودحضا لنظرية الشعبين الهندوكى والمسلم ، وهى النظرية التى تثير كراهية الهندوكيين ضد ملايين المسلمين فى الهند !

وتأييدا لهذه الفكرة يذهب كثيرون من كبار المسلمين فى حيدر اباد الى ان من الواجب ان يلتحق اكبر عدد من المسلمين بفروع حزب المؤتمر الهندى باعتبارهم وطنيين لا طائفيين

* كان يرافقنا فى رحلتنا الاخيرة السيد محمد يونس وهو شاب وطنى متحمس من حاشية الربانديت نهرو الذين يؤثرهم بثقته ومحبته . وكان ممثلا للهند فى اندونيسيا ، وله صلات شخصية وثيقة بزعماء اندونيسيا وقد اقبل يصافحنى ويعانقنى فى شوق عند وصولنا بالطائرة الى دلهى ، فتذكرت على الفور انه كان يرافقنا فى رحلتنا الاولى الى بشاور قبل عشر سنوات .

وكان يومئذ مرافقا للزعيم الكبير عبد الغفار خان الذى هو الآن سجين مع نجله الدكتور غنى فى الباكستان ! !

وقد عين السيد يونس أخيرا سكرتيرا أول وقائما بأعمال السفارة الهندية فى أنقرة . وقدمر بمصر منذ بضعة أسابيع فى طريقه الى مقر منصبه .

دروس الوطنية الهندية

للأستاذ محمود أبو الفتح صاحب المصري

على أثر عودتنا من الهند بعد رحلتنا الاولى ، كتب صديقى وزميلى الكبير محمود بك أبو الفتح هذه الفصول القيمة الممتعه . وقد استأذنته فى ضمها لهذا الكتاب . فتفضل بالموافقة مشكورا منى ، ومن جميع القراء الذين سيقدرون مابذل فيها من جهد فى البحث الدقيق ، بأسلوبه الممتاز الرشيق .

احمد قاسم جودة



رجل ضعيف يهز امبراطورية ـ أقبح رجال الهند ـ غرفة نومه فى دار مليونير ـ وجوه الرجال تضيء ـ المتعلمون يقبلون قدمه ـ من طائفة جاين ـ ثورته على آلهة الهندوس ـ زوجته كاستورباى ـ بين ذراعى امرأة ـ فى جامعات لندن ـ يتعلم الرقص والموسيقى ـ وفاؤه لامه ـ أراد ان يصير جنتلمان انجليزيا فعاد هندوسيا ـ صلته بتلستوى ـ غاندى والمسيحية ـ غاندى والاسلام ـ اعجابه بسيدنا على ـ اصلاحه بين المسلمين والهندوس ـ فى جنوب افريقيا ـ الثروة والشباب ـ التجرد من الثروة لمساعدة المظلومين

أهذا الرجل الهزيل النحيل هو الذى يهز قوائم الدولة البريطانية ويزعزع أسس أكبر امبراطورية عرفها التاريخ منذ عهد الرومان ؟ ؟

أهذا الرجل هو الذى يعلن الصيام حتى الموت فترتعد فرائص الاسد البريطانى ويقطع نائب الملك العظيم الجاه رحلته ، ويعود الى عاصمته ، ليعلن ان ما يطلبه غاندى سيحقق ولو كره أمراء الهند ومهارجتها ، ويستقبله فى قصره المنيف عاريا الا من قطعة قماش تغطى عورته ويجلس أمامه يباحثه ويداوله المرة بعد المرة فى شئون الهند وأحوال الهنود ؟ ؟

هذا هو بعينه ألفيناه فى حديقة الدار التى نزل بها فى « دلهى الجديدة » على سرير من خيزران ، يحيط به نفر من تلاميذه وأتباعه ، ماكدنا ندخل عليه حتى وقف وقدمنا اليه جواهر لال نهرو فصافحنا وهز يدنا فى حرارة ورحب بنا فى غبطة ، وأخذ يتحدث الينا يسألنا عن زعيمنا وعن بلادنا ، وعن رحلتنا ، ويملى علينا الرسالة القيمة التى بعثنا بها الى (المصرى) فى حينها ،

يتخلل كل هذا ابتسامة جذابة تضىء وجهه أو نكتة ظريفة تزيده قربا الى قلوب من يقابلونه

* * *

أقبح رجال الهند ، وأضعفهم ، وأهزلهم ، متوسط القامة ، ولكن هزاله المتناهى يجعله يبدو صغيرا ، تقوس ظهره ، هزيل الذراعين ، هزيل الساقين ، شاب شعر رأسه الضخم ، فوق تقاطيع نابية ، فم واسع تجرد من الاسنان ، وأذنان كبيرتان ، وأنف ضخم ، وعينان صغيرتان ولكنهما براقتان قل ان ينظر اليهما انسان وينساهما ، ومنهما تتبين الآلام والهموم والمشاغل التى تحملها هاتان الكتفان الهزيلتان ، الام الانسانية باسرها

* * *

لقد مررنا فى طريقنا اليه بالغرفة التى ينام فيها ، فألفينا فراشه ، قطعة من قماش قطنى ابيض مفروشة على الارض . لا سرير ولا ارائك ، وفى جانب من الغرفة كومة صغيرة من البرتقال الذى يتغذى بعصره .

ومع هذا فالدار التى بها قصر منيف شيده بيرلا المليونير الهندى الكبير ودعا غاندى الى النزول فيه هذه المرة ليكون على مقربة من قصر نائب الملك ، وكان غاندى قد قدم الى « دلهى الجديدة » بدعوة من نائب الملك على اثر صيامه ، وكان لا يزال ضعيف الصحة لا يستطيع التنقل الطويل ، اما عادته فقد جرت على ان ينزل فى كوخ صغير ، فى حى فقير ، فى دلهى القديمة

وعاريا كما ذكرنا الا من قطعة قماش تستر عورته استقبله نائب ملك بريطانيا وامبراطور الهند المرء بعد المرء ، وعاريا على هذا النحو استقبلته الدولة البريطانية فى عاصمتها وجلس جنبا الى جنب مع كبير وزرائها ونائبه فى مؤتمر المائدة المستديرة ، يباحث ممثلى حكومتها فى شئون الهند

من هو هذا الرجل ؟ ؟

ما سر سلطانه على نحو اربعمائة مليون نفس فى حين انه ارتضى الفقر ، وليس له من الحكم ما يجعله يعطى ويمنع ؟؟

ما سر قوته التى ارهبت اقوى الدول واشدها باسا ؟؟

من هو هذا الرجل الذى لم تبجل الهند وتدن ارجل مثله منذ عهد بوذا حتى الان ؟

من هو هذا الرجل الذى كتب عنه الدكتور شروود ادى الامريكى يقول :

« ذهبت لاودع غاندى فوجدته فى سرادقه الخاص وسرنا سويا ولكننى لم البث ان وجدت جموع الناس تلتف حوله وتزدحم رأيت وجوه الرجال تضىء بحب لم ار مثله من قبل ، رايت النساء يرفعن اطفالهن حتى يروه .. رايت رجالا مثقفين يغمضون عيونهم ويصلون ، ورايت بعضهم يتبركون بلمس ثوبه او تقبيل قدمه ، رأيته يسير هادئا ساكنا مثل بوذا ، على هذا الوجه الهرم رايت نورا لم يشرق مثله على بحر او ارض ، رايت رجلا يعيش فى الله »

من هو غاندى ؟؟

ولد سنة ١٨٦٩ م فى قرية « بوربانــدر » من مقاطعة ، جوجيرات ، وسمى موهانداس كارامشاند غاندى ، واسرته من طائفة « جاين » المعروفة بالنهى عن ايذاء كل حى ، ولعل هذا من اسباب اعتناقه مبدأ عدم العنف، الذى اصبح بفضله عقيدة الهنود السياسية

دخل مدرسة القرية فامتاز على اقرانه حتى انه حدث ان ثار على آلهة الهندوس واعلن ثورته إذ اكل اللحم خلافا لاوامر دينهم ولكن اللحم لم يلائم صحته فأقلع عنه .

تزوج فى الثانية عشرة من عمره من «كاستوربياى» التى اخلصت له العهد فى سرائه وضرائه فى ثرائه وفقره فى حريته وسجنه ، حتى فى اعراضه عن الاختلاط الجنسى ، فان غاندى مثل تولستوى ، الذى عرفه واحبه وراسله ، يرى قصر الاختلاط الجنسى على مجرد الانتاج ومع هذا فقد كان فى شبابه زير نساء ، حتى ان نبأ وفاة ابيه فاجأه وهو بين ذراعى امرأة

ولكنه عاد الى نظرية « براهما شارب » الهندية القائلة بالابتعاد عن الشهوة الجنسية ، واقنع زوجته بان يعيشا كأخوين وهو يروى « انه منذ ذلك الحين انقطع كل خلاف » وقد عرفنا من ابنائه مستر ديفداس غاندى فى نيودلهى وهو يشتغل بالصحافه وسجن مرات فى سبيل قضيه الهند

ما تعلمه فى انجلترا

وفى الثامنة عشرة من عمره سافر الى لندن ليدرس القانون فى جامعاتها ، ولم تسمح له أمه بالسفر الا بعد ان اقسم امام كاهن أن يتجنب الخمر واللحم والنساء وقد ذكر فيما كتبه عن تاريخ حياته انه استطاع أن يبر بقسمه رغم « التحريضات الجهنمية » (وكان كلما أحس الضعف ساءل نفسه « وبأى وجه أقابلها متى عدت ؟ »

والظاهر انه أراد وهو فى لندن ان يصير « جنتلمان انجليزيا » فتأنق فى ملبسه وتلقى دروسا فى طرق الكلام والرقص والعزف على الكمان واللغة الفرنسية ، ولكنه وجد هذا كله عبئا ثقيلا ، فاقلع عنه وعاد الى الهند هندوسيا اكثر من ذى قبل .

وقد اقام فى لندن ثلاث سنوات من سنة ١٨٨٨ الى سنة ١٨٩١ تلقى فيها الى جانب الحقوق ثلاث فكر كان لها فى حياته أثر كبير . وهى الوطنية . والديموقراطية . والمسيحية

رأى حياة الحرية التى يتمتع بها الانجليز . وسلطانهم على حكومتهم فتولدت عنده فكرة ان تتمتع امته بمثل هذا الاستقلال وقرأ ما تزيني فاضرم بين جنبيه لهيب الوطنية التى كان ذلك الوطنى الايطالى يشعر بها نحو بلاده .

وطالع تورو وتعلم منه فن العصيان المدنى

وترجم اجزاء من فلاطون وروسكن وطالع تولستوى وما كتبه عن المقاومة السلبية وعن استنكار الاختلاط الجنسى لمجرد الشهوة لا للانتاج ، واتصل بالفيلسوف الروسى وكاتبه .

وطالع ثمانين كتابا عن الديانة المسيحية ولكن كتابا واحدا ترك فى نفسه اثرا ، وهو « العهد الحديث » وكان يرى ان الدعوة

الى مقابلة الشر بالخير وتجنب العنف حتى مع العدو اسمى معانى الانسانية .

غاندى والاسلام

وكان الاسلام من اكبر العوامل اثرا فى حياة غاندى ، وكان اول ما اتصل بالمسلمين فى جنوب افريقيا حيث قضى عشرين عاما . وكان كثيرون من اصدقائه وزملائه وانصاره منهم فسهل له هذا دراسة القرآن الكريم وحياة نبينا محمد عليه افضل الصلاة والسلام ، وحياة خلفائه الراشدين وقادة المسلمين ، ويروى صديقه المرحوم الدكتور سيد حسين الكاتب الهندى المعروف انه قال له مرة انه شديد الاعجاب بخلق سيدنا على رضى الله عنه ، وروى صديقه اندروز انه يعجب برجولة المسلمين وشهامتهم وصدقهم .

على انه رغم دراسته للديانتين الاسلامية والمسيحية ظل هندوكيا فى عقيدته وطبيعته وفلسفته وهو فى هذا يقول . « ان دينى يعطينى كل مايلزم لتهذيب نفسى فهو يعلمنى الصلاة ، ولكنى اصلى وادعو الله لكل انسان ان يصبح المثل الاسمى فى دينه ، ان يزداد المسلم تمسكا بتعاليم الاسلام فانى واثق بان الله سيحاسبنا فى يوم من الايام عما نحن عليه وعما نعمل لا عن الاسم الذى اطلقناه على كياننا وعملنا »

ومن اقواله « ان الهنا جميعا واحد سواء وصلنا الى ادراك وجوده عن طريق الانجيل او القرآن او الجينا او التلمود وهو اله الحب والحق .

ولكنه رغم تدينه يضحك من لقب « المهاتما » الذى يلقبه به شعبه ويقول انه يرجو ان يقنع سجنه مواطنيه بانه مجرد بشر ليست له قوات خارقة للطبيعة . ولكن غيره ممن جاءوا فى الهند قبله واصبحوا فى عداد الهتها كانوا يقولون مثل قوله ، ومن يدرى بعد مئات السنين ان لا تقام نصب الالوهية واصنامها لغاندى ؟؟ بل لقد رأينا فى اكواخ الفلاحين ، بل وفى الحوانيت والمعارض صورا لغاندى على شكل شرى كريشنا ، الذى يؤلهونه .



أراد غاندى أن يصير (جنتلمان) فتعلم اللغة امفرنسية والرقص

ولعل من اكبر أسباب اعتماد غاندى على الدين فى حركته الوطنية أنه الاداة الوحيدة لتحريك امة قتل فيها الاستعباد والظلم والذل طوال ألفى عام، كل عزة وطنية وكل شعور بالقومية وكل كرامة أهلية او شخصية .

وقد كان دائما من اشد انصار التفاهم بين المسلمين والهندوس، فعاون المسلمين ايام حركة الخلافة ؛ وانضم الى مطالبهم وانضموا الى حركة المؤتمر، وترأس بعض مؤتمراتهم وترأسوا المؤتمر الوطنى الهندى العام ، ولما اثمرت الدسائس ووقعت الخلافات بين المسلمين والهندوس اعلن الصيام وذهب الى دار صديقه مولانا محمد على الزعيم المسلم المعروف المدفون فى القدس حيث لزم الفراش ثلاثة اسابيع لايتناول سوى الماء وفى اليوم السادس والعشرين اجتمع عند سريره زعماء الفريقين ، وأصدروا قرارا بالاجماع يرجون منه ترك الصيام فى الحال ويخولونه اختيار الوسائل المؤدية الى ازالة اسباب الخلف .

فى جنوب افريقيا

نعود الى تتبع حياة غاندى ففى كل مرحلة درس —

رجع غاندى من دراسته فى لندن سنة ١٨٩١ واستقر فى بومباى واشتغل بالمحاماة ولكنه كان مثال الانسانية والصدق ، فقد كان يرفض المرافعة ضد مدين ، ويحتفظ لنفسه دائما بحق التخلى عن قضية اذا تبين له خلال الدعوى أن موكله على غير حق .

كم محاميا فى العالم يعملون هذا !؟ وفى سنة ١٨٩٣ دعى لقضية فى جنوب افريقيا فذهب ونجح واثرى حتى تجاوز ايراده السنوى اربعة الاف جنيه وكان شابا فاجتمع له المال والشباب .

ولكنه وجد فى جنوب افريقا جالية هندية كبيرة سامتها السلطات هناك اسوأ انواع الخسف والارهاق والاضطهاد ، فطلبت الى غاندى ان يتولى الدفاع عن حقوقها مقابل اجر

كبير، فقبل الطلب ورفض الاجر، وترك حياة الترهة وكرس وقته وجهده عشرين عاما للمظلومين في افريقيا من قومه .

ولما وقعت حرب البوير ظن ان الاحسان يستتبع الاحسان فأنشأ وحدة للصليب الاحمر مؤلفة من الف هندى لمساعدة جرحى الجيش الانجليزى . ولكن جزاءه بعد ذلك كان نقض الوعود والسجن المرة بعد المرة ولكن الحكومة انتهت فى سنة ١٩١٣ بازالة كثير من المظالم الواقعة على بنى قومه .

تعليم وخطط

ثلاث كلمات اذاعها غاندى بين الهنود هى اسس الحركة الوطنية فى العشرين عاما الماضية وهى :

١ - ساتياجراها

٢ - احمسا

٣ - خدار

والاولى معناها « البحث عن الحقيقة » ويقصد بها مقاومة الشر مقاومة سلبية . والثانية معناها : بدون عنف . والثالثة تطلق على القماش الرخيص من القطن المغزول والمنسوج فى الدور (لا فى المصانع) وبالايدى لا بالالات .

وسنشرح للقراء فى مقالنا التالى نظريات غاندى المتقدمة وما اصابها من فشل وما ادركته من نجاح واثرها فى قضية الهند الوطنية .





عودة غاندى الى الهند ـ الاشرم الاول ـ نصيحة جوخال حركة الخدار ـ يجب أن نعود الى بساطتنا القديمة ـ هياكل عظمية ـ موسيقى النول ـ صراع بين النول ولانكشير ـ عشرات الملايين يستخدمون الانوال ـ الوزراء والكبراء والاغنياء يلبسون الخدار ـ المومسات والمسجونون ـ احياء الملايين ـ يرد على الفقراء كرامتهم ـ مضاعفة أجور العمال ـ المقاومة السلبية ـ الماديات والمعنويات ـ ما يملكه غاندى غاندى وزوجته يهبان ثروتهما ـ شعار العوز ـ ساتيا جراها المقاومة المعنوية ـ كيف نجحت وكيف فشلت ؟ ـ وقف السخرة ـ الضرائب الظالمة ـ امرأة غنى فشله فى الحركات السياسية ـ فاجعة امريتسار ـ البرنس اوف وايلس فى الهند ـ الهنود يهجرون مدنهم ـ قتل مستقبليه واحراق دورهم ـ كلكتا مدينة الاموات ـ احراق العساكر

نجاح الحركة

كان فى الهند زعيم وطنى كبير هو جوخال ، وكان غاندى عند عودته من جنوب افريقيا يعلل نفسه بالعمل تحت رياسته ولكنه لم يلبث الا قليلا حتى فجع فيه ، فقد مات فى فبراير سنة ١٩١٥ .

وكان جوخال يشعر بالهمة الروحية والعزيمة الجبارة التى يختزنها جسم غاندى الضئيل فأخذ عليه عهدا ان لا يأتى عملا سياسيا خلال عامه الاول فى الهند ، بل يقضيه فى سكون يرقب سير الامور ، ويتفهم الحوادث ، وله بعد ذلك ان يختط الخطة التى يشاؤها .

وقد حفظ غاندى العهد واعتكف مدة انشأ خلالها مدرسة على مقربة من مدينة « احمداباد » يعلم فيها تلاميذه تعاليمه ومبادئه ، واسم مدرسته « أشرم » ومعناها ، مكان النظام او التأديب

ومن مدرسته يخرج مدرسون ينتشرون فى انحاء البلاد يذيعون رسالته ويقطعون على انفسهم عهدا ان يلزموا الصدق دائما ، وان لا يؤذوا انسانا أو حيوانا أو أى شىء حى ، وان يتجنبوا الشهوة الجنسية ، وان يعيشوا عيشة التقشف وان لا يستعملوا بضائع اجنبية ، وان لا يأخذوا لانفسهم شيئا يمكنهم الاستغناء عنه

ويبقى التلامذة فى مدرسته يتعلمون ويطعمون مجانا لمدة عشر سنوات ويتناول درسهم الغزل والزراعة واداء الاعمال الصغيرة التى تقتيضيها المعيشة وبعد السنوات العشر يتخرجون معلمين ويقطعون على انفسهم العهد الذى بسطناه .

ومن هذه المدرسة خرجت الساتياجراها والاحمسا — البحث عن الحقيقة وعدم العنف .

ويرى غاندى انه سيجىء وقت تمتلىء فيه الهند « باشارم » تنقذ شباب الهنود من مفاسد التعاليم الحكومى وتنشىء شعبا قوامه الاخلاق .

حركة الخدار

أما حركة « الخدار » التى نشرها غاندى فى الهند فترجع الى عوامل عدة اهمها حالة الفقر المدقع التى وجد عليها قومه عند عودته من جنوب افريقا ، فقد روعته الهياكل العظيمة التى رآها فى حقول الهند كما روعه الفقر والمرض والذلة الفاشية بين اهل القرى وكان اول ما نادى به العودة الى النول .

ومن اقواله فى هذا « يجب ان نعود تدريجا الى بساطتنا القديمة ان فى عملنا بأيدينا لغبطة وفى صوت دولاب النول لموسيقى ، كم مصنف موسيقى ادرك من طنين دورانها روح الارض »

وكان يقول « ان الصناعات الانجليزيه قضت على الصناعات المنزلية الهنديه وان القرى مملوءة بالعطلة والفاقة بسبب ذلك ولا يعيد اليها البهجة والحياة لا « الشاركا » — النول

بين النول ولانكاشير

ولكن انى للنول ان يزاحم مصنوعات لانكاشير ، الا اذا فرضت ضرائب لحمايته والانجليز اصحاب الرأى فى امر الضرائب

ولا يمكن ان يسمحوا بتعطيل مناسج لانكاشير لتشغيل انوال الهند المنزليه ، ولا بانقاص ارباح اصحاب المصانع الانجليزية لاحياء ملايين بل عشرات ملايين الهنود

ولكن هذا لم يثن غاندى فأحيا حركة سواديشى - الانتاج القومى - الى جانب حركة سواراج - الحكم الذاتى - وجعل معرفة الغزل والنسج لعضوية المؤتمر الوطنى . وطلب من كل هندى مهما بلغت ثروته أن يلبس « الخدار »

ولم تلق دعوته ، ككل حركة غريبة مثلها نجاحا كبير فى بدايتها أما الان فقد عمت الهند حتى أصبح عشرات الملايين يشتغلون على الانوال واصبحت غالبية الهنود يلبسون الخدار . . ادخل الى اى بنك اجنبى او هندى ، الى محل من محال كوك ، الى أى وزارة او مكتب فانك قل أن ترى من يلبس الملابس الاوربية ، أما الباقون من وزراء تابعين للمؤتمر ومن كبراء واغنياء وسراة ووجهاء ، من رجال المؤتمر او غير رجاله يلبسون الخدار . وهو أحط المنسوجات القطنيه . . . .

وقد شهدنا فى « ريبورى » فى المؤتمر الوطنى العام أكثر من مائة الف نفس يلبسونه جميعا فلا تكاد تميز الغنى من الفقير او الوزير من الصغير .

الطلبة فى المدارس يلبسون الخدار والسيدات من الاسر الكبيرة يلبسن ساريات من الخدار

لقد وصلت دعوة غاندى الى قلب كل هندى حتى المومسات فى المواخير يغزلن وينسجن والمسجونين فى باطن السجون يغزلون وينسجون وفى كل مدينة - سبق هذا حريق كبير كانت طعمته الملابس الاجنبية

ان حركة الخدار من اهم الحركات التى افادت الهند ، نعم ان لها ناقدين يرون ان الرجوع الى النول رجوع الى نصف قرن او يزيد ، ولكن غاندى يرى ان الالات هى سبب فساد العالم وشقائه ، وهى بغير شك سبب شقاء الهنود فقد قتلت

الفابريقات الانجليزية الصناعات المحلية وتركت الملايين وعشرات الملايين فى بؤس اسود يخرجون من مجاعة الى مجاعة ، لا تفنى الالوف او مئـات الالوف بل الملايين .

اما النول فقد رد ذئب الفاقة عن اكواخ فقراء الهند ، وحفظ مئات الملايين من الروبيـات فى جيوب ابنائها بدل انصرافها الى اصحاب المصانع الاجنبية .

ولحركة لبس الخدار فائدة ادبية سامية فقد سوى الفواصل البعيدة التى كانت بين طبقـات الهنود ، احيا فى الفقراء - وهم سواد الامة - كرامة غابت عنهم منذ مئات السنين فقد وجدوا كبراءهم وعظماءهم واغنياءهـم يلبسون هذا القماش الرخيص مثلهم - والخدار هو ارخـص المنسوجات القطنية .

وحسن غاندى اجر العامـل الفقير الذى يشتغل على النول فقد كان يتقاضى اربع « انات » فحتم ان يكون اجـره ثمانى « انات » لانها اقل ما يمكن ان يعيش به عيش الكفاف ، وبمعدل « انا » لكل ساعة يعملها .

والانا تعادل خمسة مليمات .

وقد كان من نتائج ذلك ان استنبط الاليـون نولا يدويا جديدا يساعد على مضـاعفة انتاج العامل وبهذا لا ترهـق مضاعفة الاجور اصحاب الاعمال

المقاومة السلبية

اما فكرة « سـاتياجراها » التى اذاعها غانـدى والتى هى اساس الحركة الوطنية الهندية فهى ايضا غريبة ، غريبة علينا نحن الذين عشنا عيشة مادية صرفة اقترنت بالكفاف من المعنـويات ولم نعش كغاندى عيشة معنوية روحيـة صرفة تجـردت من الماديات .

نعم تجرد غاندى من الماديات فهو لا يملك من حطام الدنيـا الا ثلاث قطع من قماش « الخدار » اما ثروته القديمة فقـد وهبها لفقراء قومه ، بل اقنع زوجته بان تتجرد هى الاخرى عن ثروتها وتهبها لهم ايضا وتعيش مثله عيش الكفاف وما يكسيه من

نسجه ينفق عليهم وقد فرض ضريبة قدرها خمس روبيات لكل من يطلب امضاءه خصصها لمساعدة المنبوذين .

وهكذا تجرد من حطام الدنيا ومادياتها وكتب على نفسه التقشف فلا يكون له من ضروريات الحياة الا فى حدود ما يصل اليه افقر مواطنيه .

ولهذا ايضا اختار « الخدار » وهو ارخص المنسوجات لانه شعار العوز والتجرد وفاقة ملايين وملايين من قومه لا يستطيعون ارتداء خير منه .

هذا التجرد من المادة هو الذى جعل غاندى يمسك كلمته الجديدة « ساتياجراها » التى أصبحت على كل لسان فى الهند : تقرؤها فى الجريده الهندية مئات المرات ، وهى تقتضى متبعها أن يقاوم الضرر والشر مقاومة سلبية معنوية ، وان يكون على استعداد لدخول السجن واحتمال الالم والاذى فى سبيل ازاله ذلك الشر ، وأن يتبع الصدق والحق فى تفكيره وقوله وعمله ، وان لا يحمل حقدا ولا ضغنا فى صدره لمن يتسببون فى اذاه بل وفى سجنه .

وقد افاد هذا السلاح الادبى الخطير عده مرات ، كانت له أدوار نجاح وفشل ، نجح أولا فى مدة الحرب عند ما أثاره غاندى لمنع أخذ « المتطوعين » الهنود للسخره فى مزارع السكر بالمستعمرات ، وكان غاندى يعرف أن عملا كهذا فى مدة الحرب سيعرضه للسجن ولكن لورد شلمسفورد نائب الملك رأى خطر حركه عصيان مدنى فى تلك الظروف ودعا غاندى الى مقابلته وبعد اجتماع طويل امر اللورد بوقف تلك السخره .

ونجح فى مقاطعه بيهار حيث شكا القرويون لغاندى من ضرائب ظالمة ولكنه ماكاد يعتزم السفر اليهم حتى اصدر اليه القاضى هناك أمرا بمنعه من ذلك وهدده ولكنه عصى الامر وواجه السجن غير ان الحكومة استعملت الحكمة وخشيت سوء المغبه ودعته الى لجنة فحصت الشكاوى واقرتها والغت الضرائب .

ونجح فى نزاع بين العمال واصحاب المصانع فقد كان الاخيرون يجنون مدة الحرب ارباحا مضاعفة مرات فطالب العمال بزيادة طفيفة فى الاجور ولكن الرأسماليين أبوا ذلك واقفلوا المصانع واستمرت مقفلة حتى حل البؤس والشقاء بألوف الرجال والنساء واوشكوا أن يرضخوا لحكم السادة ولكن غاندى اعلن الصيام حتى تجاب مطالب العمال ، وقد كان ، فان زوجة أحد كبار أصحاب المصانع تمكنت من اقناعهم بالرضوخ لمطالب العمال وانقذت حياة غاندى .

ثوره سياسية

وكانت هذه الحركات الصغيرة بمثابة تجارب لتلك الوسيلة الجديدة التى أحلها غاندى محل غيرها من وسائل الجهاد فى سبيل الحكم الذاتى ، غير أنه ماكاد يستخدمها بتوسع فى حركات سياسية كبيرة ، حتى فشلت ، فشلت فى سنة ١٩١٩ فى حركة مقاومة قوانين رولت، فشلت فى سنة ١٩٢١ فى بومباى عند زيارة ولى عهد انجلترا ، وفشلت فى سنة ١٩٢٢ فى « شورى شورا » ذلك أن سواد الجماهير لم يكن قد فهم مبدأ عدم العنف تماما فانقلبت الحركات التى بدأت سلمية الى حركات دموية .

زيارة ولى العهد

ومثال ذلك انه لم حدثت فظائع امريتسار التى راح ضحيتها الوف المساكين بغير ذنب ولا جرم مهما صغر أو كبر واهتزت نهولها ارجاء الهند ، بل ارجاء انجلترا نفسها ظنت الحكومة البريطانية انها تخفف من استنكار الهنود بارسال ولى العهد لزيارة الهند ، ولما وصل الى بومباى فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢١ كانت المدينة قد اعلنت « الهرتال » — الاضراب التام وتركت وريث عرش الامبراطورية العتيدة يخترق مدينة أشبه بمدن الاموات ، فقد أقفرت الشوارع من المارة واقفلت النوافذ ، ولم يستقبله الا الانجليز وبعض التجار « البارسى » (المجوس) وما كاد الناس يسمعون بهم حتى ثاروا عليهم واضرموا النار فى دورهم وقتلوا ثلاثة وخمسين رجلا منهم .

وكان هـذا خيبـة شـديدة لغاندى الذى ارادها حركة لاعنف فيها ، ولكنه تعزى عندماعرف أن أمير الغال لما دخل دكته وجدها مدينة أموات أخرى فقـد أعلن الاضراب وكان تـاما ، فأقفلت المتاجر والدور ولم ير ولى عهد انجلترا فى الشـوارع الا الجنود الذين صفوا لتحيته والموظفين الذين جمعوا لاستقباله .

وفى « شاورى شاورا » سنة ١٩٢٢ حاول سبعه وعشرون من رجال البوليس ان يمنعوا موكبا وطنيا من السـير فهاجمتهـم الجماهير وردتهم الى معسكرهم واحرقتـه واحرقتهـم . وقد قبضت السلطات على ربع مليون نفس من اهالى المنطقة انتقاما .

ولكن الساتياجراها . المقاومة السلمية او عدم التعاون ، التى فشلت بحسب نظرية غاندى لان الجماهير لم تقابل الاذى والضرر بالجـلد والصبر بل قابلتـه بالعنف ، هـذه الساتياجراها نفسها نجحت فيمـا بعـد ابلغ النجاح واتت بأعظم النتائج مما سنشرحه فى مقالنـا التالى عن غاندى وتعاليمه ونظرياته .





بين العنف والجبن - نظرية الضعف - غاندى يفقد مكانته بين الشعب - القبض عليه- محاكمته وسجنه - الحكم عليه بأقصى العقوبة - ماذا قال القاضى الانجليزى - ماذا قال الاسقف الانجليزى - ما هو عدم التعاون - المثل العظمى فى الشجاعة والوطنية - صبى يطلب الموت فى سبيل الوطن - امرأة تفتح صدرها لرصاص الجنود - أمة تبعث من القبر - نصيحة للانجليز - المخالفون لغاندى - حركة الشباب - سوبهاس شاندرا بور - القديسون لايصلحون للسياسة - جواهرلال نهرو بعد غاندى

كان تحول حركات المقاومة السلبية فى الظروف التى بسطناها فى مقالنا السابق الى حركات ايجابية استخدم فيها الجمهور العنف بسبب خيبة أمل غاندى وحزنه • فانه بخلاف كثيرين من زعماء العالم لايعد الغاية أهم من الواسطة • أو أنها تبررها فى بعض الحالات • بل هو يرى أنه ما من غاية تستحق استعمال العنف لادراكها • وان العنف ماهو الا مظهر من مظاهر البهيمية ، أما المقاومة بدون كراهية أو ايذاء فانها عنوان سمو الرجال ويجب أن نقول هنا أنه يفرق بين عدم العنف والجبن ويرى أنه اذا خير بين الجبن والعنف لاختار العنف دون تردد • أما عدم العنف الذى يدعو اليه فهو أن يقاوم الناس الشر والعدوان جهدهم دون عنف يقدرون عليه • وأن يأبوا فى الوقت نفسه الخضوع أو الاستسلام والخنوع حتى ولو ماتوا فى سبيل ذلك •

ومن أقواله • « انى أفضل استخدام العنف ألف مره على تخنيث الشعب • انى أفضل أن أرى الهند تلجأ الى السلاح دفاعا عن شرفها على أن تصبح أو تبقى ضحية عاجزة متجردة

من الشرف والكرامه . ولكننيأعتقد أن عدم العنف أسمى من العنف سموا لاحد له »

ان نظرية عدم العنف قد تبدولنا ولغيرنا فى غير الهند عقيدة الضعف أوذريعتهم بل لها فيالهند نقاد واجهوا غاندى بهذا الرأى ، وكان رده . « انالبسالةفى ميدان القتال مستحيلة على الهند ولكن بسالة الروح فيمقدورنا . ان عدم التعاون ليس معناه إلا التدرب على انكار الذات

وهو يقول أيضا . « يجبألا يكون لنا الا رد واحد على ضربنا واطلاق الرصاص والقنابلعلينا . ذلك الرد هو الاستمرار على رفض التعاون بأى حال من الحالات مع التجار البريطانيين أوشراء بضائع بريطانيةأوالتعاونمع الحكومه البريطانيه .

وهذا الرجل الذى نادىبمذهب عدم التعاون وعدم العنف . لم يتردد فى الدعوةالى وقفهما عندما رأى تحول الحركة من السلبالى الايجاب . ومن احتمال اذى الحكومة وانصارها الى مقابلة الشربالشر . وكان قرار وقف الحركة خطوة جريئة من غاندى دلت علىشجاعته اذ كان يعرف انه يستهدف بذلك لفقد مكانته بينالشعب ولسخط الزعماء وقد كان الشعب يعتقد انه قاربالنجاح .

محاكمة غاندى

فقد هبطت فعلا مكانة غاندىالى ادنى درك فانتهزت الحكومة الفرصة وقبضت عليه وقدمتهللمحاكمة بتهمة التحريض على الفتنة وكانت قبل ذلك لاتجرؤعلى مد يدها اليه .

وكانت محاكمة غاندى درساخر فى الوطنية كما دلت على مبلغ شجاعة الرجل وجرأته بلوعلى مكانته حتى عند خصومه

دخل غاندى دار المحكمةمقبوضا عليه بين جبارين من رجال البوليس وفجأةحدث أمرلامثيل له فى دور القضاء . فقد وقف كل من فى القاعة . وقفتجماهير الناس . وقف المحامون وقف رجال السلطة . وقفممثل الاتهام . بل وقف القاضى الانجليزى احتراما لهذا الرجل



ولانظن أن قاضيا انجليزيا وقف من قبل ومن بعد احتراما لمتهم
ولكنها شخصية غاندى

ولا نظن ان قاضيا . وقاضيا انجليزيا وقف من قبـــل ومن بعد ، احتراما لمتهم يجيء أمامه مقبوضا عليه ولـكنها شخصية الرجل الـكبيرة .

واستمع غاندى الى مرافعة الاتهام ولم يحاول تفنيد التهمة أو دفعهـا عن نفسه بـل قال : « لو اطلق سراحى لفعلت ما فعلت ثانية . اننى لا أطلب رحمـة ، ولا اتذرع بظروف مخففة وانما أنا هنا اطلب الحكم على باقصى العقوبة ، واخضع مسرور العقوبة على أمر يعده القانون جريمة متعمدة واعده انا اسمى واجبات الانسان نحو وطنه . ان السبيل الوحيدة التى أمامك ايها القاضى هى أن تعتزل منصبك أو تنزل بى اشد العقاب .

وقد أصدر القاضى الانجليزى عليه حكمه بالسجن ست سنوات ولـكنه أعرب عن اسفه الشديد لاضـــطراره لان يرسـل الى السجن شخصا يعده الملايين من بنى وطنه وطنيا عظيما وزعيما كبيرا ، شـخصا يعـده ، حتى المخالفون له ، رجـلا سامى المبادىء والافـكار ، رجلا حياته حياة نبل بل وقداسة .

وعلى أثر هـذا الحكم قال اسـقف « مدراس » الانجليزى « اعترف صراحة ، ولو احزننى هـذا ، بأننى ارى فى مستر غاندى المعذب الصابر فى سبيل قضية الحق والرحمـة ، أرى فيه مثالا للمنقذ المصلوب يعنى السيد المسيح أكثر ممن القوا به فى غيابة السجن ومع هـذا يدعون أنفسهم باسم المسيح »

وحدث أن مرض غاندى فى السجن بالزائدة فاشار الطبيب الانجليزى باجراء عملية ولـكنه تردد قائلا : « اذا مت تحت يدى فان كل هندى سيتهمنى بقتلك » ولـكن غاندى وقع ورقـة ابرأ الطبيب فيها من التهمة وقـد نجحت العملية ولما غادر غاندى المستشفى لم تعده الحكومة الى السجن بل تركته طليقا .

وبعد فترة قضـاها معتكفا بمدرسـته فى « احمد اباد » دعته ظروف الحركة الوطنية ، ونداء الشعب الى دفة القيادة ثانيــة فلبى الدعوة ونزل الى الميدان ، واعلن عدة مرات عدم التعاون ودعا قومه اليـه فلبوه جميعا طائعين مرة بعدة مرة .

شروط عدم التعاون

وعدم التعاون يتطلب من منفذه :

أولا ـ أن يرد جميع الالقاب والرتب والاوسمة والوظائف الفخرية ، ويستقيل من الهيئات المحلية .

ثانيا ـ رفض حضور حفلات الحكومة واجتماعاتها وغير ذلك من الحفلات الرسمية أو شبه الرسمية التى يقيمها موظفو الحكومة أو تقام تكريما لهم .

ثالثا ـ سحب التلاميذ تدريجا من المدارس والكليات التى تحت اشراف الحكومة وانشاء مدارس وكليات أهلية فى المقاطعات المختلفة .

رابعا ـ مقاطعة المحامين والمتقاضين للمحاكم البريطانية تدريجا وانشاء هيئات تحكيم خاصة لتسوية المشاكل الخاصة

خامسا ـ رفض التطوع للخدمة العسكرية أو الكتابية أو فرق العمال .

سادسا ـ انسحاب الاعضاء والمرشحين من الانتخابات للمجالس والجمعيات التشريعية . وامتناع الناخبين عن الانتخابات فى حالة ما اذا خالف شخص ذلك ورشح نفسه .

سابعا ـ مقاطعة البضائع الاجنبية

ثامنا ـ سحب الاموال الهندية من سندات الحكومة .

شجاعة الوطنيين

وقد قاد غاندى قومه فى المقاومة السلبية وكسر القوانين الجائرة مثل قانون احتكار الملح وغيره وروضهم على احتمال الاذى فى سبيل ذلك وعدم المقاومة ، وقد لقى الناس من فظائع البوليس الاهوال ، ففى مقاطعة الحدود الشمالية أعمل فى الناس قتلا وضربا حتى قتل مئات وجرح الوف ، ومع ذلك كان الناس يتلقون الرصاص بصدورهم ، وكان فخر زعماء الحركة انه قتل مئات منهم بالرصاص بدون ان يثبت أن اصابة واحدة كانت من الظهر وفى بشاور ظهر فى اجسام بعض

القتلى اكثر من عشرين جرحا بالرصاص ، وتجلت بطولة الناس وعدم اكتراثهم بالموت ، حتى ان صبيا من السيخ تقدم الى جندى وقال له اقتلنى فاننى وهبت حياتى للوطن فأرداه ذلك الجندى القاسى دون تردد ، ورأت امرأة مسلمة عجوزا قاربها واصدقاءها جرحى بالرصاص فتقدمت من رجال البوليس وكشفت عن صدرها صارخة اضربوا فاطلقوا النار ؛ وكان رجل اخر مسن يحمل طفلا فى الرابعة من عمره أراد البوليس رده فلم يرتد قائلا لم نتعود النكوص فلما صوبوا اليه بنادقهم قال : « اقتلونى فلن تنبت شجرة الحرية فى هذا البلد الا اذا رويت بالدماء .

كل هذا والناس يأبون التفرق ، ويحتملون الاذى والموت ، دون أن يردوا العدوان بالعدوان

وفى « دراسانا » سارت الجموع نحو مواضع الملح لتأخذ حاجتها منه احتجاجا على قانون احتكاره فحاول الجنود بقيادة ضباط انجليز صدهم فلم يرجعوا ، وكان الجنود يحملون نبابيت فى اطرافها قطع الفولاذ نزلوا بها على صفوف المتقدمين ليمنعوهم من التقدم فلم يمتنعوا واحتملوا الضرب حتى سقطوا مغمى عليهم من الضربات وتقدم صف رجال يحمل النقالات لنقل المصابين وتقدمت صفوف من الرجال والنساء نزل بها مانزل بالاخرين ، وهكذا ، وحدث مثل هذا فى بومباى وغيرها .

ومما يذكر ان رجال البوليس الهنود كانوا يمتنعون عن الضرب كلما انسوا من الضباط الانجليز انشغالا عنهم ، ولا يضربون الا اذا ظهر الضباط ثانية .

ومن الغريب ان هذه الفواجع لم تثن الهنود عن تلبية نداء غاندى كلما دعاهم الى المقاومة السلبية وعدم التعاون .

لقد تحققت المعجزة التى ارادها غاندى . واذا لم يكن لنظرية الساتياجراها من فضل الا انها انتشلت هذه الامة المنحلة المستسلمة من احط درك العبودية التى وصلت اليه واخرجتها من سباتها العميق لكفى .

هذه الامة التى رضيت الذلة ، وتجردت من الوطنية ، واستمات ضميرها الوطنى صهرها غاندى امة واحدة تتحرك وتسير وتصاب بل وتقتل وتموت دون تردد أو شكوى .

ولكن « الساتياجراها » لم تصل بالهنود الى هذه الغاية فقط بل وصلت بهم الى نجاح بعد نجاح ، فسلم الانجليز لغاندى بمطالبه المختلفة أو اكثرها ، واخرجوه من السجن ليمثل الوطنيين الهنود فى مؤتمر المائدة المستديرة ، وافرجوا عن المسجونين السياسيين ووضعوا لحكومة الهند وحكومات المقاطعات نظاما جديدا يقوم على برلمانات ووزارات اهلية ووزارات هندية ، نعم انها مكبلة بشتى القيود ، يسيطر عليها الموظفون البريطانيون ، والكلمة العليا فيها للحكام البريطانيين ، ولكن هؤلاء الحكام ادركوا أن الاحوال تغيرت وانهم يجب أن يحدوا من استعمال سلطاتهم .

وما هذه الا بداية فالهند تسير الى حريتها بخطى واسعة ، وستصل اليها ، وعلى انجلترا أن تدرك أنه خير لها أن تبدا من الان فى توسيع نظام الحكم الذاتى فى الهند حتى يتولى الهنود مصائرهم وتقيم علاقاتها بهم على قواعد الصداقة والتحالف .

فرصة للانجليز

يجب أن ينتهز الانجليز فرصة غاندى لتغيير نظام الحكم فى الهند لانه الزعيم الوحيد الذى استطاع ويستطيع أن يقنع قومه باتباع خطة المقاومة السلبية وعدم العنف ، واذا مات هذا الرجل فلن يستطيع زعيم اخر صد النشأة الجديدة عن حركات عنيفة .

بل بين الزعماء الان من يخالفون غاندى فى رأيه وفى مقدمتهم سوبهاس شاندرا بوز رئيس المؤتمر الوطنى ، فانه ، ومن ورائه عناصر الشباب يرى أن الفرصة سانحة للقيام بعمل عنيف ، للضغط على انجلترا حتى ترد للهند حريتها .

المخالفون لغاندى

بل بعض الهندوس انفسهم يتهمون غاندى فى عقيدته فمنذ سنوات وقف واحد منهم فى مؤتمر دلهى يقول : « اننى اعارض



قال صبى من السيخ : « اقتلنى فقد وهبت حياتى للوطن »

خطة عدم العنف وعدم التعاون وأسألكم أهى من تعاليم الهندوسية ؟؟ كلا !! أهى من تعاليم الاسلام ؟؟ كلا !! أأقول لكم ماهى ؟ انها من تعاليم المسيحية »

ويقول له بعضهم أن الثورة الايرلندية أثبتت ان الانجليز لايحترمون الا القنابل والرصاص ويقول اخر ان القديسين لايصلحون للسياسة .

وكتب اليه ثالث يقول ان « الاحمسا » ـ عدم العنف ـ لاتوافق الهند لان الهندوس كماسلم بذلك جبناء يستخدمون هذه الفكرة للتستر وراءها . أما المسلمون فمقاتلون بطبيعتهم والموت فى سبيل الجهاد محبب اليهم »

وكتب اليه رابع ـ « ألا تظن أن المؤامرات المسلحة ضد شيء شيطانى ذميم أجدر بأية أمة من انتشار الجبن الفلسفى ؟؟ واعنى به الجبن الذى شاع فى أنحاء الهند طولا وعرضا بسبب نظريتك ـ عدم العنف »

وقد كتب غاندى مرة ـ « قال لى صديق مسلم أحبه واحترمه . اننى لا أؤمن بنظريتك عدم العنف .. العنف هو قانون الحياة اننى لا أنال الحكم الذاتى بعدم العنف .. يجب أن أكره عدوى . »

مثل هذه الرسائل مئات ومئات ترد الى غاندى فينشرها فى صحافته ويرد عليها وقد اشرنا اليها لندل على قوة الرجل الذى يستطيع ان يحمل امة بأسرها على اتباع فكرته رغم وجود كثيرين من المخالفين حتى بين كبار زعماء الحركة الوطنية ، ولندل الانجليز على ان هذا الوقت هو خير الاوقات لتعديل سياستهم فى الهند فلن يجدوا زعيما يطيعه الهنود طاعة عمياء مثل غاندى !

ثم ان جواهر لال نهرو هو أكبر الزعماء نفوذا بعد غاندى . وسيكون زعيم الهند بعده ولكننى لا احسب أن جواهر لال ممن يؤمنون فى حركات الاستقلال والحرية بالاقتصار على الخطط السلبية بل اعتقد انه ممن يقولون بضرورة تحصيل الاستقلال والحرية بعدم العنف أو العنف .



المؤتمر الوطنى ينشئه انجليزى بنصيحة نائب ملك انجلترا • الوطنية والدين • سوامى فيفيكاناندا ومهاتما غاندى • ثورة على الاصنام • برهمى يؤلف تحفة الموحدين • براهما ساماج • ثورة أخرى على الاصنام – اريا ساماج • راما كريشنا • آثار الاسلام فى الهند • أباطرة المغول • الاداب الاوردية • الانجليز يذلون المسلمين • سير احمد خان • انشاء كلية عليجرة

سخرية القدر

قد يكون من سخرية القدر، أن هذا المؤتمر الوطنى الهندى، الذى ينتسب اليه رسميا اربعة ملايين عضو، ويؤيده عشرات الملايين فى جميع ارجاء البلاد قد يكون من سخرية القدر ان هذا المؤتمر الذى يعمل على تحرير الهند، من نير الانجليز، ويجاهد فى سبيل استقلالها، انشأه منذ اربعة وخمسين عاما انجليزى كان موظفا فى حكومة الهند، وشجعه على تأليفه انجليزى كان نائبا لملك انجلترا فى حكم الهند •

الوطنية والدين

تختلط الوطنية فى الهند بالدين اختلاطا كبيرا، ومرجع هذا تأخر البلاد، فان مئات الملايين من الهندوس الذين تبادلتهم سيطرة المغيرين الاجانب، دولة بعد دولة وعشرات الملايين من الذين اذلهم الحكم البريطاني، ماتت فيهم العزة الوطنية، واستكانت الروح الوطنية، ورضوا العبودية واستناموا لها، فقد مرت عشرات السنين، بل مرت مئاتها بهم، وهم فى غفوة، بل فى سبات عميق، اجتمع عليهم الظلم والجهل والفقر، وكل منها وحده يكفى لقتل شعب، فماتت فيهم الرجولة وانعدم منهم الادراك وقتلت الكرامة والعزة، وصاروا أذلاء يرضون بالقليل، وبدون القليل مما هو فى حكم العدم

مثل هؤلاء لايحركهم الاالدين ، الدين وحده هو الذى يبعث فيهم عناصر الحياة من جديد ، ولهذا يخطىء الذين يردون أصل الحركة الوطنية فى الهند الى سنة ١٨٨٥ سنة تأسيس المؤتمر الوطنى ، بل لابد من ردها الى ماقبل ذلك بنيف وخمسين سنة الى حركة « براهما » و « آريا ساماج » و « راما كريشنا » وحركة عليجرة بين المسلمين ، وغيرها

ومما يصح ذكره ان سوامى فيفيكاناندا ومهاتما غاندى حركا بتأثيرهما الدينى مئات الملايين من الهنود ، وأيقظا فيهم حب الوطن ، ونجحا فى ذلك نجاحالم يصل اليه قبلهما زعيم سياسى قط

بل كان لهما أثر بالغ فى حركة المؤتمر ونهضته ، ومع هذا فقد بقى سوامى فيفيكاناندا راهبا الى النهاية ولم يدخل حلبة السياسة قط . وطالما جهر مهاتما غاندى بأنه ما أصبح زعيما قوميا أو سياسيا الا لينشر ايمانه بالله فى عصر قوامه السياسة

واذكاء الشعور الوطنى عن طريق الدين ليس معناه اذكاء التعصب الدينى فقد رأى القراء فيما كتبناه عن غاندى انه يدعو كل شخص الى التمسك بدينه أيا كان فهو يريد ان يحسن اسلام المسلم وان يتمسك المسيحى أو البوذى بتعاليم المسيحية أو البوذية لانه يعتقدان فى هذا صلاح الكل

وفوق هذا فان الحركة الوطنية . أو بعبارة أدق حركة المؤتمر لاتفرق بين دين ودين فهى تشمل جميع الهنود على اختلاف أديانهم ومذاهبهم

يثور على الاصنام

وقد اجمع مؤرخو الحركة الوطنية الهندية ، وأيد ذلك التاريخ الرسمى للمؤتمر . على ان بداية الحركة الوطنية فى الهند الحديثة ترجع الى بداية القرن التاسع عشر ، الى النهضة التى قام بها راجا رام موهان روى منشىء جماعة « براهما » ويعدونه نبى الحركة الوطنية الحديثة

ولد الراجا من عائلة برهمية قديمة وتعلم بمدينة « باتنا » بمقاطعة « بيهار » وكانت مركزا مشهورا للثقافة الاسلامية ، وروى عنه ان عاداته وميوله تأثرت أكبر الاثر طوال حياته بتعليمه الاولى ، ولما عاد الى داره من « باتنا » فى سن الخامسة عشرة من عمره وجد بينه وبين أبيه هوة سحيقة بسبب عبادة الاصنام فلم يستطع العيش مع أسرته فهاجر وطاف الهند والتبت ثم استقر فى «بنارس» واشتغل مدة فى شركة الهند التى كانت تحكم البلاد واتصل ببعض الانجليز

ولما مات أبوه عام ١٨٠٣ نزع الى « مرشد اباد » فى البنغال ووضع كتابا بالفارسية اسمه « تحفة الموحدين » حمل فيه حملة شعواء على الوثنية وتعدد الآلهة

وترك خدمة الشركة سنة ١٨١٤ واستقر فى كلكتا حيث انشأ « اتمبا صابحا » أى جمعية الاصدقاء ، واتصل ببعض المبشرين ودرس العبرية واليونانية لتفهم كتب المسيحية أيضا

ولم يقصر نشاطه على الناحية الدينية بل عاضد النهضة الثقافية والاجتماعية واشترك فى انشاء الكلية الهندوسية فى كلكتا سنة ١٨١٩ وأيد الحركة التى انتهت بابطال عادة «ساتى» حرق الارامل مع جثث أزواجهن

وفى سنة ١٨٢٨ أنشأ « براهماساماج » (جمعية) لنشر عقيدة التوحيد ومقاومة تعدد الآلهة وعبادة الاصنام وابطال الخرافات الدينية

وكانت هذه أول حركة دينية هامة فى الهند فى القرن التاسع عشر ، وقد اقتبس اسمها « براهما » من الكلمة السنسكريتية « براهمان » ومعناها (الله) ويظهر ان غاية راجارام موهان كانت ان يصل الى تجريد دين الهنود من الخرافات التى جعلته عرضة لحملات المبشرين وجعله بحيث يوافق روح العصر العملية

واذا كانت الجمعية لم تتقدم فى نشر تعاليمها كثيرا الا انها نجحت فى اثارة اهتمام الناس سواء لتأييدها أو لمهاجمتها ،

وتولدت عن ذلك حركات عدة دينية واجتماعية طوال القرن التاسع عشر ، وكان من نتائج المناقشات الدينية ، ان الناس أخذوا يتنبهون الى كثير من الاوشاب التى علقت بالدين ، وأدى الدين الى ارتقاء فى الاخلاق والى رغبة فى تحقيق حق الفرد والامة من العدالة والحرية

ونزع راجا موهان الى انجلترا سنة ١٨٣٠ وبقى بها لحين وفاته سنة ١٨٣٣ عمل خلالها لحمل الانجليز على تحسين حال الهنود، ويعده المؤرخون أبا الهند الحديثة وأول دعاة الوطنية فيها

وتعاقبت السنوات على الساماج وتولى أمرها كثيرون بينهم بعض اجداد « تاجور » شاعر الهند العظيم ، وكان لها شأن عظيم فى الحركات الاجتماعية والسياسية فى الهند ، وبعض رجالها كانوا من زعماء حركة المؤتمر الهندى

اريا ساماج

وبينما كانت حركة « براهماساماج » تنتشر فى بلاد البنغال، كانت حركة أخرى تماثلها قد ظهرت فى شمال الهند ، يقوم بها كاهن مبشر هندوسى اسمه دايانادس ساراسوانى ولد سنة ١٨٢٤ ، وكان منذ صباه يستنكر عبادة الاصنام ولا يرى فيها شيئا الهيا ، وقد أزعجت آراؤه أبويه فرأيا ان يزوجاه رجاء تحويله عن عقيدته الجديدة ، ولكنه هو أيضا فر من دار أسرته وضرب فى انحاء الهند ، متلقيا علوم الدين حتى ظن انه جمع منها الكفاية فأخذ ينشر الكتب والمصنفات داعيا الى آرائه ثم انشأ « اريا ساماج » فى سنة ١٨٧٥.

وكان لايعرف الانجليزية فكان يخطب ويكتب بالهندية ولهذا كانت دعايته تصل الى جموع الشعب

وكان أساس عقيدته التى تمسك بها ودعا اليها هو انه ليس هناك الا اله واحد ، وانه لايعبد عن طريق الصور والاصنام وانما يعبد كروح

ومما رغب الهنود فى دعايته انه اقر اعتقاد الناس فى انتقال الارواح ، وفى الكارنا (ان مصير الانسان متوقف على اعماله)

وقدسية البقرة ، ولكنه استنكر زواج القصر وتحريم الزواج على الارامل .

وهكذا تمشت « أربا ساماج » نحو تعصير الديانة الهندوسية مع تجنب مصادمة ميول الجماهير فى بعض المسائل وعصرت معها الشئون الاجتماعية فى شمال لهند ، وأخذت تنبه اهل البلاد الى ضرورة التمشى مع حركة التقدم والعمران فى العالم

راما كريشنا

وفى قرية من قرى البنغال ، فى سنة ١٨٣٦ ولد راما كريشنا ، ولما كبر صار راهب القرية ، ولم يكن له من العلم والمقدرة ما كان لدياناند ومع هذا فان الطبقة الوسطى التى تعلمت تعليما غربيا ، وسواد أهل البنغال جعلوه بطلهم الوطنى

ذلك ان أولئك الناس ضاقت صدورهم بالثقافة الانجليزية وما فيها من تفوق فاتخذوا من هذا الراهب القروى العبقرى شعار ثورتهم على تلك الثقافة

وقد اوجد راما كريشنا حركة اصلاح اجتماعى كان لها نتائج سياسية أيضا .

ولما مات خلفه فى نشر تعاليمه تلميذه سوامى فيفيكاناندا الذى لعب دورا هاما فى اثارة روح الوطنية بين شباب الهند ، وكان يحثهم على الاعتماد على انفسهم فى تحقيق غاياتهم القومية ، ويقول لهم ان الهنود وحدهم هم الذين يلامون على ماوصلوا اليه من ذل واستعباد طوال ألف عام وهم الذين يجب ان يعملوا للتخلص مما هم فيه واسترداد حقوقهم وحريتهم

حركة عليجرة

للاسلام فى الهند آثار عظيمة، بل أهم آثارها التى تفخر بها ، والتى تعرضها على السائحين فى كل مكان ، انما هى من مخلفات الحاكم الاسلامى ، بها تعتز الاقلية الاسلامية فى الهند ، ويشير اليها زعماؤهم فى مباحثاتهم الخاصة عن حركة الانقسام بين الهندوس والمسلمين

كان جارى على مائدة السيد حبيب الله خان فى لكناو نواب اسماعيل خان رئيس الحزب الاسلامى فى المقاطعة المتحدة فكان من ضمن ماقاله لى . « هل زرت الآثار فى مدن الهند

قلت ـ نعم

فقال ـ لاى عهد تنتسب ؟

فقلت ـ لعهد المسلمين

فقال ـ لقد كان المسلمون سادة هذا البلد

وليس بحث اليوم مجال بسط النزاع بين الاقلية والاغلبية فى الهند فان له مجالا آخر ان شاء الله ، ولكنى ذكرت ماتقدم لادل على مبلغ النهضة الاسلامية فى الهند واعتزاز المسلمين بها تلك النهضة التى قضى عليها استسلام أباطرة المغول للترف والخمر فمكنوا للاجنبى منهم ، وسهلوا العصبة من قرصان الانجليز ، جاءت باسم التجارة ، ان تضع يدها على الهند مقاطعة بعد الاخرى .

ولكن الثقافة الاسلامية رغم هذا بقيت اثارها ، والاداب الاوردية كان لها شأن فى دلهى بين سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٥٧ ، سنة الثورة المشهورة .

وقد كان يعيش فى دلهى حتى سنة ١٩٠٨ بعض من اشتغلوا بنهضة آداب اللغة الاوردية لعهد اخر اباطرة المغول .

واذا كان شعر رابندارانات تاغور قد نهض باللغة البنغالية واحياها فان اثر الشاعر الكبير المغفور له محمد اقبال فى الاداب الاوردية فى بلاد البنجاب كان عظيما .

والى اللغة الاوردية ترجمت عدة كتب من مؤلفات الغرب العلمية .

وقد استمرت هذه النهضة الى ان جاءت الثورة فقضت على هذه النهضة الثقافية بين المسلمين ذلك أن الانجليز اضطهدوا المسلمين أشد اضطهاد وانزلوا بهم افظع انواع الظلم والاستعباد فقد اتهموهم بأنهم مضرموا نار تلك الثورة ليعيدوا الى دلهى عرش المغول ويستردوا للمسلمين صولة الحكم والسلطان .

وكان من نتائج العسف والاضطهاد أن تضاءلت الثقافة بين المسلمين ، ونزل الخراب بكثير من الاسر الكريمة ، وساءت حالهم الى ابعد حد فى اغلب انحاء شمال الهند ، وفى دلهى نفسها كان بعض سلالة الاسرة المالكة يعيشون فى ضيق وضنك وعوز لا مثيل له

وتفشى الجهل بين المسلمين حتى بداية القرن الحالى وبالرغم من الجهود التى يبذلونها الان فانهم ما زالوا دون غيرهم من الطوائف عرفانا وثقافة .

وامام هذه الحال المفجعة تحركت غيرة رجل هو سير سيد احمد خان الذى كان قد خدم الحكومة خلال الثورة خدمات جعلت له حق الكلام فى شئون المسلمين والشكوى مما وصل اليه امرهم .

وكان لا بد من همة كهمة سيداحمد خان للتغلب على معارضة الانجليز ومقاومة الرجعيين من علماء المسلمين الذين كانوا يعدون تعلم العلوم الحديثة حراما وكفرا وقد نجح وبفضل جهوده انشئت جامعة عليجرة وكتب عنه سير تيودور - الذى عرفه عن قرب واشتغل معه فى عليجرة من البداية فقال - « كان سير سيد اولا واخرا مصلحا دينيا ، دعا قومه للعودة الى قواعد الاسلام الصحيحة ، واستنكر الخرافات والاوهام التى ادخلت عليه وانذرهم بان وسيلة النهوض الوحيدة هى التعليم والتعليم الغربى ، وليس فى تلقى علوم الغرب ما يخالف الدين كما يزعم المولويون جهلا ، الم يقل النبى :اطلبوا العلم ولو فى الصين . لقد استهدف السير سيد لحملات شديدة واضطهادات اجتماعية بسبب شجاعته فى الرأى ، ولكن ذلك ما كان ليثنيه عن عزمه ، وقد تغلبت شخصيته فى النهاية على المعارضة والتشهير ، وكان فى اخريات حياته مسيطرا على اراء المسلمين ، ولما مات ودفن فى جانب مسجد عليجرة قال لى احد اصدقائه .

« لقد صنف اخرون المؤلفات وانشئوا الكليات ، ولكن هذا الرجل اوقف تيار انحلال قومه وكأنما اقام فى وجه هذا التيار حائطا منيعا ، مثل هذا العمل انما هو من اعمال الانبياء ، وهذا القول حكم صادق على شخصية سير سيد وعمله ، اما انا فيمكننى ان اقول اننى لم الق فى حياتى رجلا يدانيه فى عظمته »

هذه شهادة سير تيودور لسير سيد بعد وفاته .

وقد كان لحركة عليجرة اثرها فان الروح الجديدة شاعت فى كل مدينة فى شمال الهند وغيرها من الاوساط الاسلامية .







